الباب الثانى

أُمهَاتُ المؤمِنينَ رَضِىَ اللهُ عنهنَّ

على ترتيب دخولهن البيت المحمدى

ومعهن «مارية القبطية» أم إبراهيم عليه السلام

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ

صدق الله العظيم

(سورة الأحزاب – ٦)

(١)

خديجة بنت خُوَيلد
أم المؤمنين الأولى
ووزير النبى صلى الله عليه وسلم

«... والله ما أبدلنى الله خيرًا منها: آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء»

- من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، مرفوعا. أخرجه الإمام أحمد فى مسندها، وابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب.

ذكرى أليمة

أينع صباه واكتمل شبابه، فى بيئة تَعِد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات، لكنه كان يجد طعم الحياة فى مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة.

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده، وترده إلى لحظةٍ طواها الزمن منذ كان فيما بين السادسة والسابعة من عمره، وما يزال يذكر موقفه فى بقعة موحشة من الصحراء بين «مكة ويثرب»، أمام أمه «آمنة» والحياة تتسرب من جسدها رويدا، ثم تنطفئ إلى الأبد...

ثمانية عشر عاما، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التى ألقوا فيها جثمان الغالية «بالأبواء»، ضائع الحيلة مهيض الجناح، لا يملك أن يستبقى أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام، بعد أن هالوا عليها الرمال.

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه، وصرفته دواعى الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذى غال أعزَّ من له، أمام عينيه وبين يديه، لكنه لا يلبث أن يُنتزع من حاضرِه مستثار الحزن، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعورًا بعالم بعيد، فى طريق الشمال، ليطوف بمرقد الثاوية فى جوف الصحراء، ثم يَنثنى مثقلا بالأسى والشجن.

ما أكثر ما كان يمر فى مكة بالبيت المهجور الذى ضمَّه وأُمَّه زمنا، ثم أوحش من بعدها وخلا!..

ما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعى خارج مكة، فإذا حان المساء وآن له أن يثوب إلى منزله، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى إلى يثرب، وحيدا محزونا مضاعف اليتم، يتبع جاريته «بركة» وانى الخطو صامتا واجما، وهى تسعى به إلى بيت جده الشيخ «عبد المطلب».

لقد حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التى تروع صباه.

وجاهد - عامين كاملين - ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامى فى قلب حفيده الصغير العزيز!.

لكن الزائر المرهوب الذى ألم بآل الصبى فانتزع أباه ثم أمه، عاد من جديد فطوّف بحىِّ بنى هاشم، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب، وينذره بالرحيل.

ووقف اليتيم الهاشمى مرة ثانية، يرقب الحياة وهى تنطفئ فيمن كان له أبًا بعد أبيه...

وأصغى فى حزن ذاهل إلى صوت الشيخ المحتضر، وهو يدنى إليه ولده «أبا طالب» فيوصيه بمحمد، ابن أخيه «عبد الله».

ثم يمضى...

وانتقل الصبى من بعده إلى منزل جديد، وألفى لدى عمه أبًا ثالثا، لكنه ظل يفتقد الأم.

وبقى قلبه على الأيام والشهور والسنين، ينزع نحو مرقدها الأخير فى «الأبواء»...

ولم يستطع ضجيج صبية بنى هاشم فى ملاعب حداثتهم، أن يمحو من مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التى صَكَّتْ أذنيه وقلبه فى جوف البيداء.

ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول «البيت العتيق» فى «أم القرى» أن تطوى فى متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها، قرب «الأبواء»[1].

وهذا هو يقف فى المساء الساجى عند مدخل مكة شارد البال، والكون من حوله موحش واجم، يلفه الغلَس برداء أربد، ويتنفس فيه الصمتُ العميق شجنا وإعياء.

وتتكاثف الظلمة من حوله، فيجمع نفسه فى جهد، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه، وفى نفسه إحساس مرهف بفراقٍ وشيك، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذى آواه سبعة عشر عامًا، وحسبُ العمِّ ما يحمل من أعباء بنيه الكثار...

ولكن إلى أين؟...

إلى «الشام» مؤقتا كما أراد له عمُّه فى صباح يومه ذاك، فلقد حدثه فى مطلع الشمس عن رحلةٍ مرجوة الخير، وقال له فيما قال:

«يا ابن أخى، أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا وألَّحت علينا سِنونَ منكرة، وليس لنا مال ولا تجارة، وهذه عِيرُ قومك قد حضر

---

(١) بتفصيل فى كتابنا (أم النبى ﷺ).

خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالا يتجرون فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتَها لفضّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك، وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود...

وقد بلغنى أنها استأجرتْ فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك فى أن أكلمها؟»[1].

قال «محمد»: ما أَحْبَبْتَ يا عمّ.

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل؟

إذن فليرحل، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوى فى ضمير الغيب.

* * *

(١) ابن سعد، عن الواقدى (١/١٣٠) وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ١/٥٧) والذى فى السيرة الهشامية ١/١٩٩، والسمط الثمين للمحب الطبرى ص١٣ طبعة حلب - وتاريخ الطبرى، ٣/١٩٦، أن السيدة خديجة هى التى عرضت عليه، مباشرة، أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرا.

لقـــاء

القافلة تغذ السير نحو «أم القرى» عائدة من رحلة الصيف إلى الشام، والحداة يهزجون بأغانيهم التى تَعِدُ الإبل بالراحة والظل، وتمنى الركب بالأنس فى لقاء الأهل والأحباب.

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا «مَرَّ الظهران» على مقربة من «مكة» واشرأبت أعناقهم إلى معالمها التى لاحت لهم من بعيد، تجذبهم فى لهفة واشتياق...

لكنه وحده، من بين هؤلاء جميعا، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التى هاجها مرور القافلة قريبا من «الأبواء» فى طريق عودتها إلى «مكة».

وعبثا حاول تابعه المرافق، أن يغريه بالتطلع إلى «أم القرى» أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة، التى اختارته ليخرج فى مالها إلى الشام، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطى غيره ممن استأجرتهم قبله...

وقال «ميسرة»:

«أسرع أنا إلى سيدتى فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك، فإنها تعرف ذلك لك»[1].

---

(١) السيرة، وطبقات ابن سعد (١/١٣٠).

فتركه «محمد» يمضى وفرغ لتأملاته:

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام، والحُدَاة يمنون الركب بالأنس فى لقاء العشيرة والأحباب!...

وكَرَّ بصرُه راجعا إلى وراء، يتبع آثار طيفٍ من أمه «آمنة»، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء...

وتذكر رحلته الأولى، فى السادسة من عمره، عائدا من «يثرب» بغير أم!.

* * *

ثم علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغـاء الإبل التى أناخت على ثرى «مكة» مطمئنة، فمضى «محمد» على بعيره قاصدا دار «خديجة» بعد أن طاف بالبيت العتيق...

وكانت «خديجة الطاهرة» هناك فى دارها، ترقب الطريق من عُلِّيَّةٍ لها، فى لهفة مشوبة بشىء من القلق، وإلى جانبها غلامها «ميسرة» يملأ سمعها بحديث مثير عن رحلته مع «محمد»[1].

وحين ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الفريدة وملامحه النبيلة، عَجِلتْ إليه تستقبله لدى الباب مرحبة، مهنئة بسلامة العودة، فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا.

ورفع إليها وجهه شاكرا، وقد غضَّ من بصره، ومضى يقص عليها

---

(١) انظره فى (السيرة ١/٢٠٠، وطبقات ابن سعد ١/١٣٠، ١٥٦، وتاريخ الطبرى ٣/١٩٦، وعيون الأثر ١/٤٨، والإصابة: نساء، السيدة خديجة) رضى الله عنها.

أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام..

وأنصتت إليه معجبة، حتى إذا ودعها ومضى، ظلت واقفة حيث هى، تتبعه عيناها إلى أن توارى فى منعطف الطريق.

واتجه هو إلى دار عمه « أبى طالب» وهو يحس شيئا من الرضا والارتياح، أن عاد إليه من رحلته موفقا سالما، لم يمسسه أذى من يهود....

* * *

زوَاج سَعيد

وسارت الحياة فى «مكة» على وتيرتها أياما، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم، وانصرف التجار العائدون إلى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل، محفوف بالأخطار...

وصُفّىَ حسابُ القافلة أو كاد، وانقطع ما بين التجار والأجراء إلى حين، اللهم إلا ما كان بين السيدة «خديجة» الطاهرة و «محمد» الصادق الأمين...

لقد بلت «خديجة» الدنيا وعرفت الرجال، وتزوجت مرتين، باثنين من سادات العرب وأشرافهم: عتيق بن عائذ بن عبدالله المخزومى، وأبى هالة هند بن زرارة التميمى[1]، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان، فما رأت فيمن عرفت، ذلك النمط الفريد من الرجال.

واستغرقت فى تفكيرها، تستعيد صوته الفريد المميز، وهو يحدثها عن رحلته، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء المهابة والجلال.

---

(١) هذه رواية (السيرة ١٩٣/٤، وتاريخ الطبرى ١٧٥/٣، والمحبر ١٧٩، والسمط الثمين ١٣، وعيون الأثر ١٥/١).

قابل على رواية الاستيعاب، وانظر «عتيق بن عائذ، وأبا هالة» فى (جمهرة أنساب العرب لابن حزم): ١٣٣، ١٩٩ ط أولى ذخائر.

وفجأة، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذى التقت فيه بالشاب الهاشمى، فهزها شعور مباغت، خفق له قلبها:

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد؟..

وانتفضت لاتدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة، بعد أن نفضت يديها من الرجال، أو خرجت -فى حساب بيئتها- من حياة الرجال؟

كيف تلقى به قومها وقد ردت عن بابها الخُطَّاب من سادة قريش وسراة مكة؟[1].

لقد فكرت فى قومها، دون أن تعرف رأى «محمد» فيها: أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة فى الأربعين من عمرها وهو الذى انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بنى هاشم الناضرات؟

وانتابها ما يشبه الخجل، فما هى فى كهولتها بالقياس إلى «محمد» فى شبابه غير خالة أو أم، ولو عاشت «آمنة بنت وهب» لما جاوزت يومئذ سنَّ الأربعين!... وهى بعد ليست خلية من هموم الأمومة، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومى ابنة أدركت سن الزواج، وخلف لها زوجها أبو هالة هندُ بن زرارة التميمى، ولدها «هندا» غلاما لم يشب عن الطوق[2].

فأى طائل وراء هذه العاطفة التى تبدو يائسة عقيما؟

---

(١) السيرة: ١/٢٠١، والسمط: ١٣.

(٢) انظر: أم محمد بنت عتيق، فى (جمهرة الأنساب ١٣٣) وهند بن أبى هالة، ربيب النبى ﷺ فى (الاستيعاب، والجمهرة: ١٩٩).

وفى غمرة حيرتها واضطرابها، زارتها صديقتها «نفيسة بنت مُنية» فلم يغب عنها الذى تجد صاحبتها، فما زالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوى...

وهوَّنت «نفيسة» الأمر عليها، فما فى نساء قريش من تفوقها نسبا وشرفا، وهى بعدُ ذات غنى وجمال، كلُّ قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه[١].

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا...

* * *

جاءت[٢] «محمدا» فسألته فيمَ عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان؟.. هلا سكن إلى زوج تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته؟

فأمسك الشاب دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا فى السادسة من عمره، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته:

- ما بيدى ما أتزوج به...

قالت على الفور:

- فإن دُعِيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

---

(١) السيرة: ٢٠١/١، طبقات ابن سعد: ١٣١/١.

(٢) من طبقات ابن سعد، عن الواقدى (١٣١/١) والإصابة، فى ترجمتى خديجة ونفيسة، رضى الله عنهما.

والذى فى (السيرة) أن السيدة خديجة عرضت عليه الزواج - دون وساطة - وانظر تاريخ الطبرى (١٩٧/٢) والروايتان فى (عيون الأثر ٤٩/١).

فما مسَّ سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعنى:

تلك «خديجة» ورب الكعبة، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا وكفاءة ؟..

ألا لو دعتْه لأجاب، ولكن هل تدعوه؟

وانصرفت «نفيسة» وتركته مشغول البال، يرنو فى رقة إلى طيفٍ من خديجة، وقد تراءت له فى وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير، تشع لطفا وبهاء وحنوا...

وأشفق أن تبعد به أمانيه، إذ كان يعلم ردَّها أشرافَ قريش وأغنياءها، فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه، وانطلق يسعى نحو الكعبة، فإذا كاهنة تلقاه فى طريقه فتستوقفه سائلة:

جئت خاطبا يا محمد؟

أجاب غير كاذب: كلا.

فتأملته برهة ثم هزتْ رأسها وهى تقول:

– ولم ؟.. فوالله ما فى قريش امرأةٌ، وإن كانت خديجة، لا تراك كفئا لها[1].

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى، حتى تلقى دعوة «خديجة» فسارع إليها ملبيا وفى صحبته عماه «أبو طالب وحمزة، ابنا عبد المطلب بن هاشم».

---

(١) الروض الأنف (٢١٤/١) وعيون الأثر (٥٠/١) مع ترجمة نفيسة بنت منية، رضى الله عنها، فى نساء الاستيعاب، ونساء الإصابة.

وهناك فى بيتها ألفوا قومها ينتظرون، وكل شىء مهيأ لزواج عاجل... وتكلم «أبو طالب»:

«أما بعد: فإن محمدا ممن لا يوازَن به فتى من قريش، إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، وإن كان فى المال قلًّا، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك...».

فأثنى عليه عمها «عمرو بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ» وأنكحها منه، على صداق قدره عشرون بكرة[1].

ولما انتهى العقد، نُحِرَت الذبائح ودقت الدفوف، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، فإذا بينهم «حليمة» قد جاءت من بادية بنى سعد، لتشهد عرس ولدها الذى أرضعته، ثم تعود فى الغداة ومعها أربعون رأسا من الغنم، هبةً من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت «محمدا» زوجها الحبيب...

وتندت عينا «محمد» وهو يفتقد أمه «آمنة» فإذا يد لطيفة رقيقة، تأسو الجرح القديم فى حنان غامر، وإذا به يجد فى «خديجة» عِوَضًا جميلا عما قاساه من طويل حرمان...

* * *

ولم يعن «مكةَ» من أمر الزوجين السعيدين، سوى أن زواجا ربط بين «محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم القرشى» و «خديجة

(١) فى رواية لابن إسحاق عن الزهرى، أن أباها هو الذى زوجها. والتفصيل فى (عيون الأثر ١/٥٠).

بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ»[١] القرشيّة الأسدية الطاهرة.

ولكن «التاريخ» تلبث بعد بضع عشرة سنة يسترجع يوم العرس المشهود، ويسجله بين أيامه الخالدات على مر الزمان.

وقد انصرف إلى حين، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها «مكة» ويترشفان على مهل، رحيق ودٍّ صاف عميق، سيظل حديث التاريخ.

واستغرقا فى هناءتهما خمسة عشر عاما، ناعمين بالألفة والاستقرار، وقد أتم الله عليهما نعمته، فرزقهما البنين والبنات: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة[٢].

وأرخى الزمن لهما فى حياتهما تلك الرخية الهادئة أعواما ذات عدد، ارتوى «محمد» خلالها من نبع الحنان، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم، ومتزودا لغد مقبل، حافل بالكفاح المضنى والشواغل الجسام.

وقد ذاقا فى تلك الفترة لوعة الثكل فى الولدين العزيزين، فكان للزوجين فى وئامهما وتصبرهما، ما أعانهما على تجرع الكأس التى تدور

---

(١) وأم خديجة: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة. راجع الاستيعاب (١٩١٧/٤). وتاريخ الطبرى (١٧٥/٣) - ونسب قريش: ٢٣٠ والمحبر ١٢-١٨.

(٢) انظر السيرة: ٢٠٢/١، وطبقات ابن سعد: ١٣٣/١، وتاريخ الطبرى ١٧٥/٣ والمحبر ٧٩، والاستيعاب ١٨١٧/٤، ونسب قريش ٢١.

على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد، وما كان ولداهما إلا وديعة، ولا بد يوما أن تسترد الودائع[1].

* * *

وكان للبيت المحمدى، مع ذلك، أفراحه: زُفَّتْ كُبرى بناته «زينب» إلى ابن خالتها هالة «أبى العاص بن الربيع» القرشى، وتزوجت أختاها «رقية، وأم كلثوم» من عُتبة وعُتيبة، ابنى العم عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم».

(١) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد ﷺ وأمومة خديجة رضى الله عنها، لأن موضع هذا الحديث يأتى فى كتابنا عن «بنات النبى» ﷺ.

وذكر الطبرى أن هند بن أبى هالة، كان عند أمه خديجة بعد زواجها بمحمد -ﷺ- وفى ترجمة هند بطبقات الصحابة، والحفاظ، وكتب الأنساب، أنه ربيب رسول الله ﷺ.

مع المصطفى ﷺ فى ليلة القدر

ثم كان الحادث الخطير، لا فى حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب، ولا فى حياة قريش والعرب وحدهم، بل فى حياة الإنسانية جمعاء.

لقد تلقى «محمد» رسالة الوحى، فى ليلة القدر، واصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين عليهم السلام، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا...

وكانت الرسالة إيذانا بحياة جديدة، شاقة كادحة، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد والعذاب، والجهاد، ثم النصر.

وفى الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهاصات عن نبى جديد قد حان مبعثه، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها![1].

و «مكة» على الخصوص، كانت الموضع الذى تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والبُشريات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك، لتصب حول «البيت العتيق»: مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد... غير بعيد من دار المولد وما حف بها من ذكرى قصة

---

(١) انظر هذه المرويات بالتفصيل فى الجزء الأول من سيرة ابن هشام، ط الحلبى ومن طبقات ابن سعد، والشفا للقاضى عياض، وفى الجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويرى، ط دارالكتب - وفى الجزء الأول من عيون الأثر ووفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى للسمهودى. ط السعادة بمصر.

الفداء، وبشريات الحمل والمولد والرضاعة، والرحلة إلى الشام.

لكن أحدًا لم يكن يدرى يقينًا كيف ومتى يكون المبعث المنتظر، ومن هنا كان لنزول الوحى على المصطفى ﷺ، وقع المفاجأة العنيفة التى جاوزت أبعاد التصور. كما كان منذ استقرت به الحياة فى رعاية الزوج الرءوم، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومى، قد أتيح له أن يستجيب لما فى نفسه من نزوع إلى التأمل، وميل إلى التفكير المستغرق. وهى نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا. ووجدت فى ساعات فراغه - أيام رعيه للغنم - مجالا رحبا، ثم صرفه عنها كدح العيش، لتعود فتظهر من جديد، قوية أصيلة، كأنما هى فطرة فيه.

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة، تلك التى صنعت تاريخ «مكة» وتاريخ أسرته بوجه خاص [1]، ووصلت ما بين أبيه «عبدالله» و «إسماعيل» جد العرب، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها. فأحيت بحادث فداء «عبدالله» من الذبح، ذكرى متناهية فى القدم، لمشهد الذبيح الأول: ابن إبراهيم.

وانبلج له نور الحق، فرفض هذه الأصنام التى تكدست فى بيت الله، صماء عمياء، لا تملك لنفسها نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا. وأنكر أن تخف أحلام قومه، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا.

وأرهف التأمل حسه، فإذا هو يستشف أدق ما فى الكون من أسرار،

(١) السيرة: ١/١٦٣ - واقرأ الفصل الخاص بمكة فى كتابنا «أم النبى» ﷺ.

ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء، قوة عظمى غيبية، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون...

وما شارف الأربعين، حتى كان قد ألف الخلوة فى غار «حراء» واستطاب رياضته الروحية التى يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلى السر الأعظم، وما كانت «خديجة» فى وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التى تبعده عنها أحيانا، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام فى البيت، فإذا انطلق إلى غار «حراء» ظلت عيناها عليه من بعيد، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه[1].

هكذا بدا كأن كل شىء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة، لكنها - رغم هذا التهيؤ - زلزلت حين جاءت، أرجاء ذلك العالم الذى طالما أرهص بنبوة وشيكة، وهزت كيان ذلك النبى المصطفى «محمد بن عبدالله» ﷺ الذى ما رضى قط عن موضع الأصنام بالكعبة، ولا ارتاب قط فى أن حياة قومه لن تمضى هكذا على سفَهٍ وضلال...

فما نزل عليه الوحى فى ليلة القدر وهو فى غار «حراء» حتى انطلق يلتمس بيته فى غبش الفجر خائفا شاحبا «يرجف فؤاده» حتى بلغ حجرة زوجه وذهب عنه الروع، فحدثها فى صوت مرتجف عن كل

(١) السيرة ٢٥٣/١ - الدرر: ٣٤، الإصابة ٢٠٠/٨.

ما كان ونفض لديها مخاوفه، فأخبرها الخبر وقال: «لقد خشيت على نفسى».

أتراه يهذى حالما؟... أم به جُنَّة؟...

وضمته إلى صدرها، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها، وقالت فى ثقة ويقين:

«الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عَمٍّ واثبت، فو الذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لايخزيك الله أبدًا... إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1].

وزايله روعه، فما هو بالكاهن ولا به جنَّة، وهذا صوت «خديجة» العذب الواثق، ينساب مع ضوء الفجر إلى فؤاده، فيبث فيه الثقة، والأمن والهدوء.

وأحس الراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق إلى فراشه، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالى، ثم تهدهده بصوتها الأليف المريح.

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق فى نومه الهادئ المطمئن، ورفرف عليه قلبها ملء الحب والإيمان، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر، حتى إذا بلغت الباب اندفعت إلى الطريق الخالى، تحث خُطاها نحو ابن عمها «ورقة بن نوفل» ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح،

---

(١) متفق عليه من (حديث بدء الوحى) ومعه السيرة ٢٥٣/١ وشرحها فى الروض الأنف ٢٧٠/١ وابن سعد، بإسناده من عدة طرق (١٩٤/١/ وتاريخ الطبرى: ٢٠٥/٢ - ٢٠٧، والسمط الثمين ص١٠، وعيون الأثر ٨٣/١، والإصابة ٢٠٠/٨... بألفاظ متقاربة.

والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة.

وجاءت «ورقة» فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها، لكنه ما كاد يصغى إلى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلا، وتدفقت الحيوية فى بدنه الواهن، فانتفض يقول فى حماسه:

«قدوس... قدوس، والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتِنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت»[1].

ولم تنتظر مزيدا من قوله، ولم تستعد كلمة واحده منه، بل أسرعت إلى زوجها الحبيب تعجل له بالبشرى، فإذا به لا يزال نائما كما تركته.

وعز عليها أن توقظه، فجلست بالقرب منه منتظرة، تكاد نفسها تذوب من لهفة عليه وحب وحنان.

فى حديث السيدة عائشة، رضى الله عنها، عن بدء الوحى، قالت: فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصر فى الجاهلية.. يكتب الإنجيل بالعبرانية، وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عمٍّ، اسمع من ابن أخيك... فأخبره ﷺ بخبر ما رأى، وسمع، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل على موسى، عليه السلام، يا ليتنى فيها جَذَعًا، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِىَّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك

(١) السيرة ١/٢٥٤ - وتاريخ الطبرى: ٢/٢٠٦ والحديث مخرج فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها.

أنصرك نصرًا مؤزَّرًا»[١].

وطابت نفسه، ﷺ، بما سمع، فانصرف إلى بيته مطمئنا مع زوجه أم المؤمنين الأولى، ليبدأ جهاده من أجل رسالته، وليلقى فى سبيلها أشقَّ ما وعى التاريخ من أذى واضطهاد، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها، ويحقر آلهتها التى وجدوا آباءهم لها عابدين.

ووقفت زوجه المحبة المؤمنة إلى جانبه، تنصره وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا، فلما قُضى على بنى هاشم، وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعْبِ أبى طالب، بعد أن أعلنت قريش عليهم حربًا مدنية لاترحم، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة علقت فى جوف الكعبة[٢]، ولم تتردد «خديجة» رضى الله عنها فى الخروج مع زوجها ﷺ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن، وناءت بأثقال الشيخوخة، والثكل، والاضطهاد.

وأقامت هنالك فى شِعب أبى طالب ثلاث سنين[٣]، صابرة مع زوجها النبى ﷺ، ومن معه من صحبه وقومه، على عنت الحصار المنهك، وجبروت الوثنية العاتية.

* * *

(١) متفق عليه، وانظر السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبرى: ٢٠٦/٢، ٢٠٧.

(٢) السيرة: ٣٧٥/١ وتاريخ الطبرى ٢٢٨/٢.

(٣) السيرة، والمحبر لابن حبيب (١١) وفى رواية لابن سعد أنهم أقاموا سنتين، ورواية أخرى بلفظ «مكثوا سِنينَ» - الطبقات ٢١٠/١.

عَـام الحُـزن

حتى تهاوى الحصار أمام ذلك الإيمان الصادق والمجاهدة الباسلة. وآن للنبى ﷺ أن يعود إلى بيته فى جيرة الحرم المكى، مع زوجه المؤمنة الصابرة التى بذلت له فى المحنة، ما أبقى لها الزمن من طاقة، فى عامها الخامس والستين.

بعد نحو ستة أشهر من انهيار الحصار، مات العم «أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم» وقد كان لابن أخيه -ﷺ- أبًا صديقًا وكافلاً وحاميًا، ومانعًا له من طواغيت قريش، قومه.

ولم تشهد رضى الله عنها مأتمه. كانت فى فراشها تودع الدنيا، وزوجها عليه الصلاة والسلام إلى جانبها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشرى ما لها عند الرفيق الأعلى، ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده فى هذه الدنيا. ثم أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام، بين يدى الزوج الذى تفانت فى حبه منذ لقيته، والنبى الذى صدقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها، وكانت له سكنا وأنسا وملاذا، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. ودفنها، ﷺ، بالحجون.

* * *

كانت وفاتها، رضى الله عنها، قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح[١].

وتلفت محمد ﷺ حوله، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء، وإذا «مكة» تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان..

قال «ابن إسحاق»: «فتتابعتْ على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام»[٢].

وأسند الواقدى عن عبدالله بن ثعلبة، بن صُعَيْر، رضى الله عنه، قال: «لما توفى أبوطالب وخديجة بنت خويلد، وكان بينهما شهر وخمسة أيام، اجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان، فلزم بيته وأقَلَّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولاتطمع به..»[٣].

وبلغت متاعبه، ﷺ، أقسى مداها فى عام موت «خديجة» الذى سمى «عام الحزن» وخيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء. وكذبتهم أمانيهم فظنوا أن الظفر به جد قريب، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر...

ذلك أنّ «خديجة» لم تمض إلا وأمين الوحى يرعى النبى ﷺ غاديا رائحا، يذود عنه اليأس والإعياء، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح، ويرون الاستشهاد فى

---

(١) ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير (عيون الأثر ١/١٣٠) والإصابة ٦٢/٨، والمحبر لابن حبيب ١١.

(٢) السيرة: ٥٧/٢ - تاريخ الطبرى: ٢٢٩/٢، عيون الأثر: ١٣٠/١.

(٣) طبقات ابن سعد: (ذكر سبب خروجه ﷺ إلى الطائف) ٢١١/١.

سبيل دعوته مجدا وانتصارا...

لم تمت «خديجة» إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت «مكة» إلى أطراف الحجاز، ثم إلى ما وراءها من بلاد العرب، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار إلى «الحبشة» مهاجرين بدينهم، متخلين عن ديارهم وأهليهم، عارضين على الدنيا مشهدا رائعا فريدا من مشاهد الإيمان الباذل الصابر، مالئين الأسماع والقلوب بحديث مثير عن شرف الجهاد ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد.

لم تمت «خديجة» رضى الله عنها إلا وفى الموسم بمكة، رجال من «يثرب» لن يلبثوا أن يبايعوا الرسول ﷺ ويعودوا فيعبئوا المدينة كلها لنصرته، وأقصى أمانيهم أن يؤذن لهم فى الحرب جهادًا فى سبيل الله، ليظفروا بإحدى الحسنيين، النصر على أعداء الله، أو الاستشهاد فى سبيله...

* * *

ملءُ الحيَــاة

ولكن، هل ماتت «خديجة» حقًّا؟

إنها لماثلة فى حياة زوجها النبى عليه الصلاة والسلام، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه، وما يسرى إلا وسنًى مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات...

وسوف تدخل بعدها فى حياته ﷺ، نساء ذوات عدد، لكن مكانها من قلبه وفى دنياه، سيظل ماعاش خالصا لهذه الزوج الأولى، والحبيبة الرءوم التى انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان، لم تشركها فيه أخرى، ولا لاح فى أفقه ظل من شريكة سواها.

سوف تفد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات، فيهن ذوات الصبا والجمال، والحسب والجاه، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح «خديجة» عن مكانها هناك، ولن تفلح فى إبعاد طيفها الذى أقام يحوم حول الحبيب ويستأثر بمحبته.

وستشهده «المدينة» بعد أعوام عندما انتصر فى «بدر» يتلقى فداء الأسرى من قريش، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها «زينب» فى فداء زوجها الأسير «أبى العاص بن الربيع» حتى يرق قلب البطل الرسول من شجو وشجن، ويسأل أتباعه الظافرين، فى أن يردوا على «زينب» قلادتها ويفكوا أسيرها[1].

(١) السيرة ٢٠٧/٢ - ولحديث القلادة فصل خاص فى كتاب «بنات النبى» ﷺ.

وسيشهد بيت النبى ﷺ «عائشة بنت أبى بكر» فى عزة صباها ونضرة شبابها وحب النبى ﷺ لها، تجمح بها الغيرة من تلك الضرة التى سبقتها إلى قلب «محمد» ﷺ واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه.

فى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها، قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك فقال: «اللهم هالة!» فغِرت فقلت: «ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت فى الدهر أبدلك الله خيرًا منها؟»[1] زادت فى رواية الإمام أحمد بالمسند، وابن عبدالبر فى الاستيعاب، وابن حجر فى الإصابة من طريق أبى بشر الدولابى:

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا:

«والله ما أبدلنى الله خيرا منها: آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء» زاد الطبرانى فى روايته، قالت: «قلت: يارسول الله اعف عنى، ولاتسمعنى اذكر خديجة بعد هذا اليوم بشىء تكرهه».

وكانت قبل ذاك، لاتكف عن الكلام فيها! فى (الصحيحين) من حديثها رضى الله عنها. قالت: «ما غِرت على أحدٍ من نساء النبى ﷺ ما غِرت على خديجة، وما رأيتها. ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة. فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لى منها ولد...»[1].

---

(١) متفق عليه، من فضائلها رضى الله عنها.

وفى رواية بصحيح مسلم، أنه ﷺ قال: «إنى قد رُزِقتُ حبَّها»[١].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت:

«ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجنى رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت»[٢].

* * *

وحتى يوم الفتح - وقد مضى على وفاة خديجة رضى الله عنها أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث - رُئى رسول الله ﷺ، يختار مكانا إلى جوار القبر الذى ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى، ليشرف منه على فتح «مكة» وليقيم فيه قبة ضربت له هنـاك[٣]، تؤنسه روح «خديجة» ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام، ملتفتا بين آونة وأخرى إلى بيتها الحبيب، حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الكفاح المضنى الطويل...

وسوف تدخل فى الإسلام من بعد «خديجة» ملايين النساء، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التى آثرها الله بالدور الأجل فى حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وسيذكر لها المؤرخون - المسلمون وغير المسلمين - ذلك الدور، فيقول «بودلى»:

«إن ثقتها فى الرجل الذى تزوجته - لأنها أحبته - كانت تضفى جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التى يدين بها اليوم واحد فى كل سبعة من سكان العالم»[٤].

(١-٢) صحيح مسلم: فضائلها رضى الله عنها، ح(٢٤٣٥) والإصابة ٦٢/٨.

(٣) تاريخ الطبرى - حوادث السنة الثامنة للهجرة «جـ٣».

(٤) بودلى: الرسول، الترجمة العربية لمحمد فرج وعبد الحميد السحار.

ويؤرخ «مرجليوث» حياة محمد، ﷺ، باليوم الذى لقى فيه خديجة «ومدت يدها إليه تقديرا». كما يؤرخ حادث هجرته إلى «يثرب» باليوم الذى خلت فيه «مكة» من «خديجة».

ويطيل «درمنجم»[١] الحديث عن موقف «خديجة» حين جاءها زوجها من غار حراء «خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية، غريب النظرات.. فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن، وتسبغ عليه ود الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذى يحتمى به من كل عدوان فى الدنيا».

وكتب عن وفاتها:

«... فَقَد محمد بوفاة خديجة تلك التى كانت أول من علم أمره فصدقته، تلك التى لم تكف عن إلقاء السكينة فى قلبه... تلك التى ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات».

ودرمنجم هنا، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين، فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة: فمرجليوث يجعل لمال خديجة المكان الأول فى زواج كهذا «بين شاب فقير، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بنى مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن» ثم يمضى فيكتب، بكلمات تقطر حقدا وزُورا:

«إن دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من

---

(١) حياة محمد لدرمنجم - ص٨٥ من الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر.

عمه أبى طالب حين خطب إليه ابنته أم هانئ، فرده لفقره وزوجها لذى مالٍ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء، يداوى به جرح كرامته التى أهدرها فقره».

وليس هذا بمستغرب من مثله، فكذلك يَلوُون الأخبار فى تفسيرهم لتاريخ الإسلام. وكلامه هنا مردود بما فى مصادرنا الموثقة من حديث «عبد الله بن عباس» ابن عم أم هانئ، رضى الله عنهما. ذكر خطبته، ﷺ أم هانئ إلى أبيها، عمه أبى طالب، وقد سبقه إلى خطبتها «هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومى»، وهو كفء كريم. فقال أبوطالب: يا بن أخى، إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم «ثم فرق الإسلام بين أم هانئ وهبيرة، فخطبها ﷺ فقالت: والله إنى كنت أحبك فى الجاهلية فكيف فى الإسلام؟ ولكنى امرأة مصبية- أى ذات صبية- فأكره أن يؤذوك»[1].

وفيها قال عليه الصلاة والسلام: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل: أحْناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده»[2].

وفى رواية من طريق الشعبى أن أم هانئ رضى الله عنها قالت: يا رسول الله، لَأنت أحَبُّ إلىّ من سمعى وبصرى. وحقُّ الزوج عظيم، فأخشى إن أقبَلتُ على زوجى أن أضيع بعض شأنى وولدى، وإن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج. فقال رسول الله ﷺ: «إن خير نساء

(١-٢) ترجمتها بالإصابة. والحديث متفق عليه.

ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره، وأرعاه على بعل فى ذات يده»[١].

وفسر «موير» فى كتابه (حياة محمد وتاريخ الإسلام) وفاء محمد -ﷺ- لخديجة بتهيبه لمركزها المالى والاجتماعى، وخوفه من أن تطالبه بالطلاق!

وكان على «موير» أن يفسر لنا: فيم إذن كان وفاء الرسول، عليه الصلاة والسلام، لخديجة بعد موتها؟.. وهل كان ﷺ يخاف أن تطالبه بالطلاق، وهو يخاصم «عائشة» فيها بعد وفاتها بسنين، ويأبى عليها أن تمس ذكراها؟!

لقد كانت «خديجة» ملء حياته ﷺ حية وميتة، وما جاوزت «عائشة» الحق حين قالت: «كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها».

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه فى أعماقه موت أمه بين يديه؟!

هل كان لأنثى غيرها، أن تهيِّئ له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها - فى إيثار نادر - ما أعده لتلقى رسالة الوحى؟!

هل كان لزوج عداها، أن تستقبل عودته التاريخية من غار «حراء»، بمثل ما استقبلته هى به من حنان فياض وإيمان راسخ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها فى أن الله غير مخزيه أبدا؟!

هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه فى أحلك

---

(١) طبقات ابن سعد: ١٥١/٨ وانظر فى (نسب قريش) أبناء هبيرة المخزومى من أم هانىء: ٣٤٤ ط أولى، ذخائر.

أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أشد الأذى والاضطهاد، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟

كلا... بل هى وحدها التى مَنَّ الله تعالى عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة، وأنْ كانت أول الناس إسلاما، كما مَنَّ بها على رسوله عليه الصلاة والسلام، ملاذا وسكنا ووزيرا.

قال ابن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ لايسمع شيئًا يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها رضى الله عنها: إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، حتى ماتت رضى الله عنها»[١].

وتركت الراحلة من بعدها، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ، وملء التاريخ الإسلامى. وقد أفردت لهن كتابى عن «بنات النبى» عليه الصلاة والسلام وفيه تفصيل ما أجملتُ هنا عن أمومة السيدة خديجة، أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها وعنهن[٢].

ومَنَّ الله عليها وعلى المسلمين، بأن حفظ فى نسل الزهراء بنت الطاهرة، ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام، قَبَسًا من سَنا نوره ونفحة من عطر شذاه. فهى أم آل بيت النبى، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

* * *

(١) فى السيرة: ٢٥٧/١ - وانظر السمط الثمين: ٢٣.

(٢) وانظر فضائلها رضى الله عنها فى: المناقب من صحيح البخارى والفضائل من صحيح مسلم.

(٢)

سَوْدَة بنت زَمْعَةَ
المهَاجرة أرملة المهاجِر

«... ووالله ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجًا لك»

سودة بنت زمعة رضى الله عنها
(الإصابة)

وحشَـة

الأيام تمضى ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد، والليالى كوالح مسهدات، مشحونة بالذكريات، ومحمد ﷺ - فى وحدته بعد خديجة: أم العيال وربة البيت ووزيرُه فى الإسلام والشريكة فى الجهاد - يخلو إلى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه، ليسامر طيف التى ملأت دنياه.

والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم ﷺ فيشفقون عليه من تلك الوحدة، ويودون لو يتزوج، لعل فى الزواج ما يؤنس وحشته بعد «أم المؤمنين» الراحلة.

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث إليه فى موضوع الزواج، حتى كانت «خولة بنت حكيم السلمية»[1] هى التى سعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة، تقول: «يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلَتْك خَلَّة لفقد خديجة!»

فأجاب ﷺ: «أجل، كانت أم العيال وربة البيت».

فتشاغلت «خولة» بالنظر إلى بعيد، ثم أقبلت على الرسول ﷺ فاقترحت عليه أن يتزوج! وفى رواية لابن سعد أنها قالت: أفلا أخطب عليك؟[1]

---

(١) الطبقات: ٥٧/٨، تاريخ الطبرى: ١٧٥/٣ والسمط الثمين: ١٠٣، والإصابة ١١٧/٨. ترجمة خولة بنت حكيم السلمية، ذات هجرتين، مع زوجها عثمان بن مظعون الجمحى، رضى الله عنهما.

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا، وقلبه عامر بطيف الراحلة، يتذكر «نفيسة بنت منية» حين جاءته منذ بضع وعشرين سنة، تحدثه فى الزواج وتعرض عليه «خديجة بنت خويلد».

لكن، من... بعد خديجة؟

ذكرت له «خولة» على الفور، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب: «عائشة... بنت أحب الناس إليك»![1]

وتفتح قلبه ﷺ حين ذكر صاحبه: أول رجل صدقه وآمن به مع ابن عمه علىّ، ومولاه زيد، ثم وقف إلى جانبه من اللحظة الأولى، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أخ وصاحب وصديق.

وذكر ﷺ مع «أبى بكر» ابنته عائشة، تلك الصبية اللطيفة الحلوة، التى طالما آنسته بمرحها ولطفها، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة...

ولم يستطع أن يقول لخولة: لا...
ولو حاول أن يقولها، لما طاوعه لسانه!
أيرفض بنت أبى بكر؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة، ومكانة لأبى بكر عنده، صلى الله عليه وسلم، لم يظفر بها سواه، وأنس إلى تلك الصغيرة العزيزة، الذكية الملامح، اللطيفة المحيا..

- لكنها ما تزال صغيرة يا خولة...

---

(١) تاريخ الطبرى: ١٧٥/٣.

وكان رد «خولة» حاضرا:

- تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج...

لكن، من للبيت يرعى شئونه، ومن لبنات الرسول ﷺ يخدمهن؟

وهل جاءت «خولة» لتعرض زواجا آجلا، لن يتم قبل سنتين أو ثلاث؟... بل جاءت وفى خاطرها اثنتان، إحداهما بكر وهى «عائشة بنت أبى بكر...» والأخرى ثيب، هى «سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ العامرية»[١] وأمها «الشموس بنت قيس بن زيد ابن عمرو» من بنى عدى بن النجار[٢].

وأذن لها ﷺ فى خطبتهما، فمرت أولا ببيت «أبى بكر»، ثم جاءت بيت «زمعة» فدخلت على ابنته «سودة» تقول:

- ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة؟

فسألت «سودة» وهى لاتدرى مرادها: وماذا يا خولة؟

قالت: أرسلنى رسول الله أخطبك عليه!

وجاهدت «سودة» لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة، ثم قالت فى صوت مرتجف: وددت!... ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك.

فدخلت «خولة» عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج، فحيته بتحية الجاهلية، ثم قالت: إن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب أرسلنى أخطب عليه سودة.

---

(١) من بنى عامر بن لؤى - انظر نسب قريش «٤٢١» وجمهرة الأنساب «١٥٧» ذخائر.

(٢) السيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب: ١٨٦٧/٤ والإصابة ١١٧/٨، والمحبر ٧٩ أو: الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد (نسب قريش «٤٢٢» وجمهرة أنساب العرب «١٥٨» وعيون الأثر ٣٠٠/٢).

فصاح الشيخ: كفء كريم، فماذا تقول صاحبته؟

أجابته خولة: تحب ذاك.

فسألها أن تدعوها إليه، فلما جاءت تلقاها قائلا:

- أى سودة، زعمت هذه أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أفتحبين أن أزوجكه؟

قالت: نعم[١].

وهنا أشار «زمعة بن قيس» إلى خولة أن تدعو إليه «محمدا» فقامت تدعوه للزواج.

وبنى ﷺ بسودة، بمكة، وعائشة يومئذ بنت ست سنين[٢].

* * *

وفى رواية للواقدى عن مخرمة بن بكير بن عبد الله الأشج، عن أبيه قال: قدم السكران بن عمرو مكة من أرض الحبشة ومعه امرأته سودة بنت زمعة، فتوفى عنها بمكة، فلما حَلَّت أرسل إليها رسول الله ﷺ فخطبها، فقالت: أمرى إليك يارسول الله. فقال ﷺ: «مُرِى رجلا من قومك يزوجك» فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود العامرى - ابن عمها، وأخو السكران- فزوجها فكانت أول امرأة تزوجها ﷺ بعد خديجة. وفى رواية الواقدى عن ابن أخى الزهرى عن أبيه أنه تزوجها فى شهر رمضان سنة عشر من النبوة[٣].

---

(١) تاريخ الطبرى: ١٧٦/٣، والنقل منه، والسمط الثمين ١٠٢.

(٢-٣) (طبقات ابن سعد: ٥٧/٨ - ٥٢).

هجرة وتَرمّل

وشاع فى «مكة» أن محمدا ﷺ فد خطب «سودة بنت زمعة» فكاد ناس لايصدقون سمعهم، فما فى مثل «سودة» مأرب، وتساءلوا فى ارتياب: أرملة مُسِنَّة، غير ذات جمال، تخلف «خديجة بنت خويلد» التى كانت يوم خطبها الشاب الهاشمى، سيدة نساء قريش، ومطمح أنظار السادة من قريش؟.

كلا، لن تخلف «سودة» أو سواها «خديجة» وإنما تجىء إلى بيته ﷺ جبرا لخاطرها، وعزاء لها عن زوجها ابن عمها: «السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ القرشى العامرى» الذى هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة، ثم مات عنها وترك أرملته من بعده، قد أسلمتها محنة الاغتراب إلى محنة الترمل.

وذكر رسول الله ﷺ أولئك النفر الثمانية من بنى عامر، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر ثم يركبون أهوال البحر، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة، تحاول أن تردهم قسرا إلى متاهة الضلال ومهواة الشرك.

من هؤلاء النفر الثمانية، كان: «مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرى» أخو سودة، و«السكران بن عمرو بن عبد شمس» زوجها وابن عمها، وأخواه «سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس» وابن أخيه «عبد الله بن سهيل بن عمرو.»[1].

---

(١) السيرة: ١/٣٥٢، وتاريخ الطبرى: ٢/٢٢٢، وعيون الأثر ١/١١٥ -١١٨ مع: جمهرة الأنساب ١٥٧، والسمط ١٠١.

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم، وكلهن عامريات: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بنَ عبد شمس، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس.

هكذا خرجت الأسرة المؤمنة، برجالها ونسائها، من دارها ووطنها، راضية بما هو أقسى من الموت، فى سبيل الله.

وتمثل عليه الصلاة والسلام «سودة» وهى تودع أرضا عزيزة حُلَّتْ بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها، ثم تمضى إلى بلد مجهول، وناس لا هى منهم ولا هم منها، لسانهم غير عربى، ودينهم غير الإسلام، وقبل أن تئوب من غربتها، وتبلغ «أم القرى» فاضت روح زوجها «السكران بن عمرو»... لم يمهله الموت ريثما يعود كيما يدفن فى ثرى مكة، مرقد من مضوا من الأهل والخلان[1].

وتأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر، فما كادت «خولة بنت حكيم» تذكرها له، حتى مدّ يده الرحيمة إليها يسند شيخوختها، ويهون عليها الذى ذاقت من قسوة الحياة.

* * *

(١) فى موت السكران بن عمرو روايتان: أنه مات عن سودة بأرض الحبشة مهاجرا. وقيل: عاد بها إلى مكة فما لبث أن مات قبل الهجرة إلى المدينة.

حكاهما ابن عبدالبر فى ترجمة السكران بالاستيعاب (٦٨٥/٢) وعلى القول الأول موسى بن عقبة، وابن حزم فى الجمهرة (١٥٧) والزبير بن بكار، فيما نقل ابن سعد. وعلى الثانى: ابن إسحاق فى السيرة (٧/٢) والواقدى، حكاه ابن سعد أيضا، وابن حجر فى ترجمتها بتهذيب التهذيب، وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ٣٠٠/٢). وانظر الدرر: ٦١.

وهَبتُ ليلتى لِعائشَة

وأصبحت «سودة» ذات يوم، فإذا هى زوجة لرسول الله عليه الصلاة والسلام[1].

وداخلتها رهبة من جلال زوجها، وقاست نفسها إليه ﷺ، ثم إلى «خديجة» الزوج الأولى، ثم إلى «عائشة» العروس الصبية المنتظرة، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها.

ولم تخدعها نفسها قط، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب «محمد» عليه الصلاة والسلام، حاجزا لا سبيل إلى اقتحامه.

وعرفت من اللحظة الأولى التى جمعتها بزوجها، أن «الرسول» ﷺ هو الذى تزوجها، لا «الرجل» الذى لم تجرده النبوة من بشريته.

وأيقنت دون ريب، أن حظها من الرسول بر ورحمة، لا حب وتآلف...

لكن ذلك لم يرعها، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله إلى تلك المكانة، وأن جعل منها - أرملة السكران بن عمرو - أما للمؤمنين.

---

(١) فى خبر بالمحبر (٨٠) ورواية لابن سعد عن هشام بن الكلبى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما (٥٦/٨) أنها رأت قبل موت السكران رؤيا قصتها عليه، ففسرها بقرب موته، وزواجها من بعد بالنبى ﷺ. فاشتكى من يومه ذاك، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات.

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها فى بيت رسول الله، وأن تخدم بناته...

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مشيتها -وكانت ثقيلة الجسم- وأن يأنس أحيانا إلى خفة روحها أويستملح عبارة من عباراتها...

قالت له مرة:

«صليت خلفك الليلة يا رسول الله، فركعت بى حتى أمسكتُ بأنفى مخافة أن يقطر الدم»[1].

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها...

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة، أسند «ابن إسحاق» عن يحيى بن عبد الله بن سعد بن زرارة الأنصارى، قال:

قُدِم بأسرى بدر، وسودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء، فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب. قال: تقول سودة: والله إنى لعندهم إذ قيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم. فرجعت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد، سهيل بن عمرو - أخو السكران بن عمرو - فى ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكت نفسى، حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أى أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا مُتُّم كراما؟

---

(١) ابن سعد، من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمى (٥٤/٨) والاستيعاب ١٨٦٧/٤، والإصابة ١١٨/٨.

فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت:

«يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين؟»

قلت: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت![1].

كانت «سودة» تقوم على بيت النبى ﷺ، حتى جاءت «عائشة بنت أبى بكر» فأفسحت لها «سودة» المكان الأول فى البيت، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة، وأن تسهر على راحتها.

ثم وفدت على البيت أزواج أخريات، فيهن حفصة بنت عمر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة بنت أبى أمية المخزومى زاد الركب، فما ترددت سودة فى إيثار عائشة بإخلاصها ومودتها، وإن لم تظهر ضيقًا بهؤلاء الزوجات اللائى يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول عليه الصلاة والسلام.

لكنه ﷺ، أشفق عليها من الحرمان العاطفى، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه، لكن بشريته لم تطاوعه، فكان أقصى ما استطاعه لسودة، أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة، وأما عواطفه فأنى له - وهو بشر - أن يقسرها على غير ما تهوى أو يخضعها بإرادته لموازين العدل وضوابط القسمة!

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع

(١) السيرة: ٢/٢٩٩، وانظر معوذ وعوف ابنى عفراء، فى شهداء بدر، رضى الله عنهم. ص١٠٣ - ويقال إنها قد أشرفت يومئذ على المئة!

أحس أنه يؤذيها ويجرح قلبها، وإن لم تبد منها بادرة شكوى أو ضيق، فانتظر ﷺ إلى أن جاءت ليلتها، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها.

وسمعت النبأ ذاهلة، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا، فرفعت وجهها إليه صلى الله عليه وسلم فى ضراعة صامتة، ومدت يدها مستنجدة، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذى كاد يقضى عليها...

وعندئذ آبت إليها سكينتها فهمست فى ضراعة:

- أمسكنى، ووالله ما بى على الأزواج من حرص، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك[1].

ثم أطرقت محزونة، وقد عز عليها أن تحمله ﷺ على ما يكره، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته فى تسريحها وهى التى تهب حياتها راضية فى سبيل مرضاته.

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل، فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس فى حبه عائشة بنت أبى بكر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة بنت زاد الركب، وحفصة بنت عمر!... وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا، بل شعرت أنها إذ تأخذ ليلتها مثلهن، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه!..

---

(١) ابن حجر، الإصابة: ١١٧/٨، والنقل منه، ونحوه فى الاستيعاب ١٨٦٧/٤ وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وفى رواية أخرى بالمحبر (٨٠) وطبقات ابن سعد ٥٤/٨، والإصابة: أنه صلى الله عليه وسلم بعث إليها بطلاقها فقعدت فى طريقه وناشدته أن يرجعها، وجعلت يومها لعائشة رضى الله عنها.

وهمت بأن تجيب فى قهر وعلى استحياء:

- سرحنى يا رسول الله!

لكن الكلمات تعثرت فى حلقها...

وطال عذابها، وطالت حيرتها، ورسول الله إلى جانبها ينظر إليها صامتا فى إشفاق وتأثر.

وفجأة، لاح لها خاطر سكنت له نفسها، فقالت فى هدوء:

- أبقنى يا رسول الله، وأهب ليلتى لعائشة، وإنى لا أريد ما تريد النساء[1].

فتأثر ﷺ لهذا الموقف السمح الكريم: يأتى سودة ليسمعها كلمة الطلاق - وما أبغضها! - فيكون جوابها هذا الإيثار النبيل، تتحرى به مرضاة الزوج الكريم.

وانجابت ظلمة الليل، فخرج ﷺ إلى المسجد لصلاة الفجر، وقامت «سودة بنت زمعة» فى بيتها تصلى وقلبها عامر براحة الرضا.

أسند الواقدى عن الزهرى عن عروة عن عائشة، قالت: «كانت سودة بنت زمعة قد أسنّت، وكان رسول الله ﷺ لايستكثر منها، وقد علمتْ مكانى من رسول الله ﷺ وأنه يستكثر منى. فخافت أن يفارقها وضنت بمكانها عنده، فقالت: يارسول الله، يومى الذى يصيبنى لعائشة،

---

(١) الإصابة: ١١٧/٨ والاستيعاب: ١٨٦٧/٤ - وصحيح مسلم - وانظر السمط الثمين ص١٠٣ - ويقال إنها قد أشرفت يومئذ على المئة!

فقبله النبى ﷺ، وفى ذلك نزلت: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾[١].

فلندعها فى صلاتها راضية مطمئنة، شاكرة لله أن ألهمها هذا الحل الموفق، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله، دون أن تستشعر الخزى بالحرص على الأزواج فى مثل سنها العالية!

ولقد عاشت فى بيت الرسول حتى لحق ﷺ بربه، وفى الخبر أنها عمرت حتى «توفيت فى آخر زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه» على الأرجح[٢] وقد ظلت أم المؤمنين عائشة، تذكر لها صنيعها، وتؤثرها بجميل الوفاء، فتقول: «ما من امرأة أحب إلىَّ من أن أكون فى مسلاخها، من سودة بنت زمعة،... لما كبرتْ قالت: يا رسول الله قد جعلت يومى منك لعائشة». الحديث[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥٣/٨. والآية من سورة النساء: ١٢٨.

(٢) الاستيعاب، والاصابة، وعيون الأثر، ٣٠١/٢، ورجح الواقدى أنها توفيت سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية.

(٣) صحيح مسلم: كتاب ١٧ ح (١٤٦٣) وفى ترجمتها - بطبقات ابن سعد من عدة طرق بألفاظ متقاربة والاستيعاب والإصابة.

(٣)

عائشة بنتُ أبى بَكر

حَبيبَة سَيّد البشر، الصِّديقة بنت الصدِّيق

«أى بُنَيَّة، خفِّضى عليك الشأن فواللَّهِ
لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها،
لها ضرائر، إلا كثَّرن عليها»

أم رومان رضى الله عنها
من حديث الإفك فى الصحيحين

الصّهرُ الكريم

«إن من أَمَنِّ الناس علىَّ فى ماله وصحبته أبا بكر. ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنْ أخوة الإسلام»

حديث نبوى متفق عليه

عندما ذكرت «خولة بنت حكيم السلمية» للرسول عليه الصلاة والسلام اسم عائشة بنت أبى بكر، تفتح قلبه ﷺ لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس إليه من صحبة وقربى، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق.

حدثت عائشة عن هذه الخطبة فيما أسند الطبرى[1] من طريق سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى عن أبيه، قالت: «فجاءت خولة، فدخلتْ بيت أبى بكر فوجدتْ «أم رومان» أم عائشة، فقالت لها:

أى أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة!

قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة!

قالت: وددتُ، انتظرى أبا بكر فإنه آت...

(١) تاريخ الطبرى ١٧٦/٣، والنقل منه. ونحوه فى طبقات ابن سعد (٥٩/٨) وفى الإصابة من حديث عائشة رضى الله عنها، أخرجه ابن أبى عاصم. وانظر معه المحب الطبرى فى السمط الثمين ص ٣١.

فجاء «أبو بكر» فقالت له: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! أرسلنى رسول الله أخطب «عائشة»..

قال: وهل تصلح له؟.. إنما هى ابنة أخيه...

فرجعتْ إلى رسول الله ﷺ فقالت له ذلك، فقال:

«ارجعى إليه فقولى: أنت أخى فى الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لى»

فأتَتْ «أبا بكر» فذكرت له فقال: انتظرينى حتى أرجع...

قالت «أم رومان: إن المطعم[1] بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه «جبير» ولا والله ما وعد -أبو بكر- شيئا قط فأخلف.

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته «أم جبير» -وكانت مشركة- فقالت العجوز: يا ابن أبى قحافة، لعلنا إن زوَّجنا ابننا ابنتك، أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه؟

فلم يرد عليها «أبوبكر» بل التفت إلى زوجها «المطعم» فقال: ما تقول هذه؟

فقال: إنها تقول ذاك.

فخرج «أبو بكر» - وقد شعر بارتياح لما أحلَّه الله من وعده - وعاد إلى بيته فقال لخولة: ادعى لى رسول الله...

(١) مات المطعم بن عدى بن نوفل بن عبدمناف القرشى مشركا، وكان أحد الخمسة الذين قاموا فى نقض صحيفة المقاطعة الظالمة. وأما ابنه جبير فقدم على النبى ﷺ، مشركا، فى وفد قريش فى أسارى بدر وكان من أكابر قريش، وأعلمهم بالنسب. ثم أسلم بين الحديبية والفتح. توفى فى خلافة معاوية رضى الله عنهما. وحديثه عند الستة.

فمضت «خولة» إليه ﷺ فدعته، فجاء بيت صديقه أبى بكر، فأنكحه عائشة وهى يومئذ بنت ست سنين أو سبع على متاع بيت قيمته خمسون أو نحو من خمسين درهما.

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما، بطبقات ابن سعد (٥٨/٨) قال: خطب رسول الله ﷺ إلى أبى بكر الصديق عائشة، فقال أبو بكر: يارسول الله، قد كنت وعدت بها -أو: ذكرتها - لمطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، لابنه جبير، فدعنى حتى أسلها منهم. ففعل.

ولا يذكر التاريخ عنها وقتئذ ، إلا أنها بنت ست سنين أو سبع، وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدى النوفلى. وأبوها أبو بكر بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر - أو بنت عامر بن عمير - من بنى الحارث بن غنم بن كنانة[1].

وقد عُرف قوم عائشة، بنو تيم، بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأى، كما كانوا مضرب المثل فى البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن...

ثم كان لأبيها إلى جانب هذا الميراث الطيب، ما عرف له من دماثة فى الخلق وحسن العشرة ولين الجانب. وأجمع مؤرخو الإسلام على أنه «كان أنسب قريش لقريش، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من

(١) السيرة: ٢٩٣/٤ - ابن سعد: ١٦٩/٣ وتاريخ الطبرى: ١٧٧/٣ والاستيعاب ١٨٨١/٤، وعيون الأثر (٣٠٠/٢). ومات المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بمكة مشركا قبل بدر. وذكره ﷺ بخير فى أسْراها من قريش. وأسلم جبير يوم فتح مكة. وأمه أم جميل بنت سعيد العامرية.

خير وشر. وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وخبرته وحسن مجالسته»[١].

فلما بعث محمد ﷺ، أضاف «أبو بكر» إلى هذا كله شرف السبق إلى الإسلام، وكان المناضل عنه بكل ما يملك، الداعى إليه فى شجاعة وحمية. وممن أسلم من الصحابة بفضل أبى بكر واستجابة لدعوته: عثمان بن عفان الأموى، والزبير بن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف الزهرى، وسعد بن أبى وقاص الزهرى، وطلحة بن عبيد الله التيمى... وهم من العشرة المبشرين بالجنة، رضى الله عنهم.

قال عليه الصلاة والسلام:

«ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ماكان من أبى بكر بن قحافة، ماعكم - أى ما تلبث - حين ذكرته له وما تردد فيه».

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ما نفعنى مال قط، ما نفعنا مال أبى بكر». قيل فبكى «أبو بكر» وقال: «يا رسول الله، وهل أنا ومالى إلا لك؟».

* * *

وأم عائشة: أم رومان بنت عامر الكنانية،[٢] من الصحابيات

---

(١) السيرة: ٢٦٧/١ - وانظر معه مناقب أبى بكر فى صحيح البخارى: ٢٠٠/٢ وفضائله فى الجزء الرابع من صحيح مسلم.

(٢) لا خلاف فى نسبها فى بنى مالك بن كنانة، لكن الخلاف من أبيها إلى كنانة كثير =

الجليلات. كانت قد تزوجت فى الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدى فولدت له الطفيل، ثم توفى عنها فخلف عليها أبو بكر فولدت له عائشة وعبد الرحمن.

أسلمت بمكة قديما، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة مع أهل رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وولده، وأهل أبى بكر. وتوفيت بالمدينة فى عهد النبى ﷺ، فى ذى الحجة، سنة سِتٍ. نزل ﷺ فى قبرها واستغفر لها وقال: «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك»[1]. وأسند ابن سعد من طريق يزيد بن هارون حديث القاسم بن محمد بن أبى بكر، قال: لما دُليت أم رومان فى قبرها قال رسول الله ﷺ: «من سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان». ونزل ﷺ فى قبرها[2].

= جدا كما صرح فى الاستيعاب (١٩٣٦/٤) وابن سعد فى الطبقات (١٦٩/٣) راجع معهما الإصابة، ونسب قريش: ٢٧٦ وجمهرة أنساب العرب: ١٢٧- ذخائر، والمحبر٨٠، وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وتهذيب التهذيب ٤٣٣/١٢.

(١) ابن سعد فى ترجمتها بطبقاته، وعنه ابن حجر فى الإصابة. كما أخرجه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب، ولم يختلفوا فى وفاتها بعد محنة الإفك، لكنهم اختلفوا فى تحديد سنة الوفاة.

راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (باب الكنى) ومعها: تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٦٧/١٢.

(٢) الطبقات الكبرى: ٢٧٧/٨.

مألوفة

كان حسب «عائشة» أن تكون بنت أبى بكر، لينزلها زوجها ﷺ من قلبه ومن بيته فى أعز مكان.. لكنها كانت إلى جانب هذه البنوة، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض.

وُلدت بمكة فى الإسلام، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث، وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هى وأختها أسماء، وكان المسلمون إذ ذاك قلة معدودة.

وفى صحيح البخارى من حديثها فى الهجرة، قالت:«لم أعقل أبوىَّ قط إلا يدينان الدين».

وعرفها ﷺ منذ طفولتها الباكرة، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية، وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة، مع فصاحة فى اللسان وشجاعة فى القلب، إذ كان الذى تولى حضانتها جماعة من بنى مخزوم.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها: «أُرِيتُك فى المنام مرتين، أرى أنك فى سَرَقَةٍ -شقة بيضاء- من حرير ويقول: هذه امرأتك. فأكشف عنها فإذا هى أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه.[1]»

---

(١) متفق عليه، من فضائلها رضى الله عنها.

ولم تدهش «مكة» حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا. ولم يجد فيها أى رجل من أعداء الإسلام أنفسهم موضعا لمقال، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء، أن يتخذ من زواج محمد ﷺ بعائشة مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه، ولو كان بهتانا وزورا وافتراء.

وماذا عساهم أن يقولوا؟...

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة، لم تبلغ السابعة من عمرها؟

لكنها قد ذُكرت قبل أن يخطبها المصطفى ﷺ، على «جبير بن مطعم بن عدى» بحيث لم يستطع «أبو بكر» أن يعطى كلمته لخولة بنت حكيم، حتى مضى فتحلل من وعده لأبى جبير.

أو ينكرون أن يكون زواج بين صبية فى سنها، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين؟

أى عجب فى مثل هذا، وما كانت أول صبية تزف فى تلك البيئة إلى رجل فى سن أبيها، ولن تكون كذلك أخراهن؟ لقد تزوج «عبد المطلب» الشيخ من «هالة» بنت عم «آمنة» فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه، من تِرب هالة «آمنة بنت وهب».

وسيتزوج «عمر بن الخطاب» من بنت على بن أبى طالب، وهو فى سن فوق سن أبيها!

ويعرض «عمر» على «أبى بكر» أن يتزوج ابنته الشابة «حفصة»

وبينهما من فارق السن مثل الذى بين المصطفى وعائشة...

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو من ألف وثلاثمائة عام من ذلك الزواج، فيهدرون فروق العصر والبيئة، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه «الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء» ويقيسون بعين الهوى، زواجا عقد فى مكة قبل الهجرة، بما يحدث اليوم فى الغرب المتحضر، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين، وهى سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة فى الجزيرة العربية، بل فى ريف مصر وأكثر مناطق الشرق، وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة العربية وعاد يقول:

«ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد... نظروا إليه من وجهة نظر المجتمع العصرى الذى يعيشون فيه، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك، كان ولايزال عادة آسيوية، ولم يفكروا فى أن هذه العادات لا زالت قائمة فى شرق أوربا، وكانت طبيعية فى إسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وأنها ليست غير عادية اليوم، فى بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة...»[١].

ولقد كانت غبطة آل أبى بكر بالمصاهرة الكريمة، مما صحت به الآثار وتواترت المرويات. ومنها ما أسند الواقدى[٢] من حديث حبيب المدنى، مولى عروة بن الزبير ابن السيدة أسماء بنت أبى بكر، قال: لما ماتت خديجة حزن عليها النبى ﷺ حزنا شديدا. فبعث الله جبريل فأتاه

---

(١) بودلى: الرسول - ص ١٢٩ من الترجمة العربية لفرج والسحار.

(٢) الطبقات الكبرى: ٧٨/٨.

بعائشة فى مهد فقال: «يارسول الله، هذه تذهب حزنك، وإن فى هذه خلفا من خديجة، ثم ردها. فكان رسول الله ﷺ يختلف إلى بيت أبى بكر ويقول: «يا أم رومان، استوصى بعائشة واحفظينى فيها» فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها، وكان ﷺ لايخطئه يوما واحدا أن يأتى إلى بيت أبى بكر منذ أسلم إلى أن هاجر، فيجد عائشة متسترة بباب الدار تبكى بكاء حزينا، فسألها فشكت أمها فدمعت عيناه ودخل على أم رومان فقال: «يا أم رومان، ألم أوصك بعائشة»؟

الهجـرة

لم يرض محمد ﷺ أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهى حداثتها، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها، بل تركها حيث هى فى بيت أبيها، تمرح لاهية مع لداتها وصواحبها وأترابها خلية البال...

وكان كل حظه منها أن تسرع إليه كلما مر ببيت «أبى بكر» فتكاد تنسيه بلطفها وإيناسها، المشاغل الجسام التى تنتظره لدى الباب، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يجدها كلما أوى إلى داره وحيدا غريبا...

وحيدًا، وإن كان فى عصمته «سودة بنت زمعة» تتفانى فى خدمته وتقوم على شئون داره وبناته.

غريبا، وإن يكن مقيما فى «مكة»: بلد آبائه وأجداده منذ ما لا يحصى من الدهور والأحقاب.

وطاب له أن يسعى إلى بيت صاحبه «أبى بكر» كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه فى فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض.

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله ﷺ، فى عظمته وجلاله ووقاره، يرتاح إليها ويأنس إلى صحبتها ويجد فى عالمها المرح ما يجذبه إليه، حيث يشاركها لهوها فى سماحة حلوة وألفة حبيبة.

وازدهاها «ألا يخطئ رسول الله ﷺ، أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار، إما بكرة وإما عشية»[١].

وذات يوم - وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها، وخرج المسلمون عن مكة إلى المدينة مهاجرين، فلم يتخلف مع الرسول عليه الصلاة والسلام، إلا من حبس أو فتن، غير أبى بكر وعلى بن أبى طالب - علت شمس الضحى حتى توسطت كبد السماء، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب، وكانت «عائشة» فى فناء الدار، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة.

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب، فأصغت فى لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز ﷺ.

وبادرت إلى الباب تفتحه مشوقة مرحبة، فما لمح «أبو بكر» شخص النبى ﷺ قريبا من الدار فى تلك الساعة من حر الهاجرة، حتى وثب من مهجعه وهو يقول:

«ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث».

فلما دخل تأخر له «أبو بكر» عن سريره، فجلس عليه الصلاة والسلام، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل، فأمسكت «عائشة» أنفاسها، وكذلك فعلت أختها «أسماء»، ووقفتا خاشعتين تترقبان...

وتكلم ﷺ فقال لصاحبه دون أن ينظر إلى من فى الحجرة:

(١) السيرة: ١٢٨/٢ وعيون الأثر ١٨٢/١ من طريق البخارى. فى صحيحه، حديث الهجرة، مع فتح البارى: ١٦٦/٧.

«أخرج عنى مَن عندك!»

قال الصديق: يا رسول الله، إنما هما ابنتاى...

ثم أضاف مستفسرا فى قلق: وما ذاك فداك أبى وأمى؟

قال عليه الصلاة والسلام:

«قد أُذِنَ لى فى الخروج والهجرة...»

فهتف الصديق: الصحبة يا رسول الله... الصحبة![1].

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول فى الهجرة فيقول له:

«لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبا!»

فيطمع فى أن يكونه...

وتذاكر الصاحبان - على مسمع من عائشة وأسماء - ما كان من غيظ قريش حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا، فحذروا خروج رسول الله إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون فى أمر محمد ﷺ.

وكان فيهم عتبة بن ربيعة - أبو هند - وشيبة أخوه، وأبو سفيان بن حرب، وطعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم، والنضر بن الحارث بن كلدة، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وحكيم بن حِزام، وأمية بن خلف، وغيرهم من رجال قريش.

(١) السيرة: ١٢٩/٢ والنقل منها. وحديث الهجرة مخرج فى الصحيحين عن السيدة عائشة، وابن عباس رضى الله عنهما.

واستقروا آخر الأمر على رأى لأبى جهل بن هشام: أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نَسِيبا، فيُعطى كلُّ فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فيرضوا منهم بالدية![1].

وأذن لرسول الله فى الهجرة، واختار أبا بكر له صاحبا!

وأحست «عائشة» ضيقا وقلقا من الفراق الوشيك، وتطلعت إلى المصطفى الحبيب ﷺ ثم إلى أبيها، فما راعها إلا أن رأته يبكى من الفرح.

وما شعرت قط - فى سنها الغضة - قبل اليوم أن أحدا يبكى من الفرح، حتى رأت أباها رضى الله عنه يفعل يومئذ[2].

* * *

وبدأ التأهب لرحيل عاجل...

بعث «أبو بكر» رضى الله عنه يدعو إليه «عبد الله بن أُرَيقط» - وكان دليلا ثقة، خبيرا بمجاهل الطريق - فدفع إليه راحلتين يرعاهما ليعادهما الموقوت.

ودعا صلى الله عليه وسلم إليه ابن عمه «على بن أبى طالب» فأسر

---

(١) ابن هشام، السيرة: ١٢٤/٢، ١٢٦ وابن سعد من طريق الواقدى (٢٢٧/١)، تاريخ الطبرى: ٢٤٣/٢، عيون الأثر ١٧٦/١ من طريق ابن إسحاق.

(٢) السيرة: ٢٤٦/٢.

إليه النبأ الخطير، ثم استخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس.

فلما حانت ساعة الرحيل: وقف ﷺ على مرتفع هناك ببيت أبى بكر، فرنا إلى «البيت العتيق» وقتا، ثم أشرف على «أم القرى» وقال:

«والله إنك لأحب أرض الله إلىَّ، وإنك لأحَبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت»[1].

ثم استدار فنظر إلى «عائشة» وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا، وقد أذهلها الفراق المفاجئ السريع، فما درت أفى يقظة هى أم تلك رؤيا منام...

وتسلل الصاحبان من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هى كل ما بقى له ولأهله من مال، ثم انطلقا وما يعلم أحد فى «مكة» بخروجهما إلا «على بن أبى طالب» وآل أبى بكر...

وأخذ المهاجران طريقهما إلى غار يعرفانه فى جبل ثور بأسفل مكة، وبقيت «عائشة» فى الدار وحيدة قلقة.

أما أخوها «عبد الله» وهو شاب لَقِن، فكان يدلج كل سحَر فيصبح مع قريش بمكة ، يتسمع ما يقول الناس...

وأما أختها «أسماء» فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية إلى الغار فى سِتْر المساء.

وسمعت «عائشة» من أخيها «عبد الله» أن المشركين قد أحسُّوا

(١) السيرة: ١٢٩/٢، والنقل منها، وتاريخ الطبرى: ٢٤٧/٢.

خروج الرسول ﷺ وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم.

وكادت نفسها تطير شعاعا، لولا أن عصمها من اليأس إيمانها بالله ورسوله، وما كانت تسمع من حديث أخيها إلى مولاهم «عامر بن فهيرة» أن يرعى النهار فى رعيان أهـل مكة، فـإذا أمسى أراح غنم أبى بكر على الغار!

وكانت مشغلة «عائشة» طول النهار أن تعد الدقائق وهى تمضى فى بطء كأنها أعوام، مرهفة سمعها إلى نبأ جديد. فإذا ولّى النهار وتأهبت أختها «أسماء» لرحلتها المسائية، حملتها «عائشة» سلامها ودعواتها للراحلين العزيزين، ثم وقفت تحدق فى الطريق مترقبة عودة «أسماء» وقلبها يخفق فى لهفة وقلق.

وتعود «أسماء» فتثب إليها عائشة معانقة، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب، واليد التى صافحتهما، والأذن التى سمعت صوتهما، ثم تجلس إليها لتسمع منها ما رأت من حالهما..

وتحدثها «أسماء» عن مشقة الإقامة فى الغار، وعما كـان من حزن أبى بكر رضى الله عنه حين رأى الرسول ﷺ فى ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، فقال:

«إن قُتِلتُ فإنما أنا رجل واحد. وإن قُتِلتَ أنت هلكت الأمة».

فيذهب ﷺ عنه الخوف بقوله:

«لا تحزن إن الله معنا»[1].

---

(١) من حديث الهجرة فى (الصحيحين). وفى السيرة، والنقل منها. وعيون الأثر ١٨٢/١ مع (آية التوبة: ٤٠).

وتظل «عائشة» تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة، حتى ينال منها الجهد والسهد، فتستسلم عيناها للغمض، وتحوم روحها حول الغار القريب، مأوى أعز من لها فى الوجود.

ومر اليوم الثانى يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد ﷺ وصاحبه، ثم حان المساء وتسللت «أسماء» خفية تحمل الزاد، فلما عادت قصت على «عائشة» كيف أن المطاردين بلغوا الغار، وتلبثوا عنده برهة، بل هموا بالنزول إليه، لولا أن صدهم عنه نسيج من عنكبوت على وجه الغار، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه!

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منها ويتشاورون فى اقتحام الغار، فقال: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. قال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين، الله ثالثهما؟»[1].

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة، وقفت «عائشة» فى مرقبها إثر نهار مشحون بالقلق، ترصد الطريق... وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت، وهى مرهفة الحواس تحدق فى غسق الدجى لعلها تلمح شخص «أسماء»، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها، لعل هواء الليل يحمل إليها حسا من خطوات بعيدة!

ومضى وهن من الليل وهى فى وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب، حتى أقبلت «أسماء» أخيرا تسرى على عجل، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس.

---

(١) متفق عليه من حديث أبى بكر، فى بابه من فضائل الصحابة، رضى الله عنهم.

واشتد القلق بـ«عائشة» ، فوقفت حيث هى، تحدق فى نطاق «أسماء» الذى عادت به من رحلتها ممزقا. قد غاب شق منه!

ورحمتها «أسماء» فعجلت لها بنبأ خروجهما سالمين من الغار، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها، وأقبلت تحدث «عائشة» عما كان:

ففى هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر- والتى اختيرت ليبدأ بها التقويم الإسلامى- جاء الدليل «عبد الله بن أريقط البكرى» يسوق الراحلتين اللتين أودعهما إياه أبو بكر منذ أيام، وراحلة له ثالثة، فأناخ عند فتحة الغار، فخرج ﷺ وصاحبه رضى الله عنه، وجاءت «أسماء» بطعامها فى سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما، فلما همَّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها، أعوزها العصام تربط به السفرة إلى الرحل، فحلَّت نطاقها فشقته نصفين، علقت السفرة بأحدهما، وانتطقت بالشق الآخر، فبذلك سميت ذات النطاقين[1].

ونظر «أبو بكر» إلى الراحلتين يفحصهما، ثم اختار أفضلهما فقربها إلى النبى ﷺ قائلًا: «اركب... فداك أبى وأمى»...

فركب المصطفى عليه الصلاة والسلام، ثم ركب «أبو بكر» وأردف خلفه مولاه «عامر بن فهيرة»...

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا إلى الجنوب فى طريق غير مطروق، ووقفت «أسماء» تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد، فرجعت وحدها إلى بيت أبيها، وهى توجس خيفة من تنبه المطاردين.

---

(١) ابن سعد، من حديث هشام بن عروة عن أبيه (٨/٢٥٠) والإصابة من طريق ابن إسحاق. وانظر تخريج الحديث فى (فتح البارى: ٧/١٧٦).

وغابت «عائشة» عما حولها، ومضت تسرى بروحها فى أثر الراحلين، فما راعها إلا طرقات عنيفة تلح على الباب، فوقفت مكانها لا تملك حراكا، وخرجت ذات النطاقين تلقى الطارقين بليل، فإذا نفر من قريش - فيهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة المخزومى - يسألونها فى غلظة:

«أين أبوك يابنت أبى بكر؟»

قالت: «لا أدرى والله أين أبى!»

وما كذبت، فقد كان آخر عهدها بأبيها منطلقا من الغار، ساريا فى مجاهل الفلاة، إلى حيث لا تدرى أين بلغ به سراه فى صحبة النبى ﷺ.

فلم تشعر إلا ويد «أبى جهل» ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية، طرحت قرطها![1]

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون ويتوعدون...

* * *

ومضت أيام وليال، لم يكن لمكة فيها من حديث إلا عن تلك المطاردة الشرسة العنيدة، تعدو فيها قريش وراء مهاجر شبه أعزل، وقد اشتد خوفها أن ينجو بدعوته إلى حيث يغدو مطمئنا وما لها إليه من سبيل. ونجا ﷺ، وصاحبه فى الغار.

وتضاربت الأنباء فى وجهته، حتى جاء خبر من يثرب أن المسلمين هناك يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة منتظرين، فما يبرحون

---

(١) السيرة ١٣٢/٢، وتاريخ الطبرى: ٢٤٧/٢ وترجمة أسماء فى الاستيعاب بسند ابن عبدالبر، وفى الإصابة من طريق مسلم وابن سعد. وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١٨٩/١) من طريق الغيلانيات.

مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال...

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل، سمعوا صيحة رجل من يهود: يا بنى قيلة، هذا جدكم قد جاء.

فخرجوا مسرعين ليروا النبى ﷺ فى ظل شجرة ومعه أبو بكر فى مثل سنه، وأكثرهم لم يكن رآهما قبل ذلك، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما النبى ﷺ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثانى فأظله بردائه، فعرفوه[1].

وسرى النبأ فى أنحاء «يثرب» وتعالى الهتاف من كل مكان، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية فى شوق ولهفة إلى حيث تلقى المهاجر العظيم، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم، تشق أجواز الفضاء!

وعرفت «عائشة» مكان الحبيب...

وكذلك عرفت قريش، حين لم تعد تجديها معرفة، وجاء دورها لتنتظر فى خوف وذعر ماذا يأتى بعد به الغد...

انكمشت فى قهر، أنْ أعجزها الظفر بمهاجر فرد، خرج من «مكة» وليس معه غير صاحب واحد، ودليل غير مسلم. ومولى تابع...

وأرهف التاريخ سمعه، يبدأ بهذه الهجرة إلى يثرب كتابا جديدًا فى تاريخ الإنسانية، ويبدأ بها ليثرب نفسها، عهدا جديدا مباركا: مدينة النبى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) السيرة: ١٣٧/٢، وانظر نسب «قيلة» أم الأنصار الأوس والخزرج، فى جمهرة أنساب العرب (٣١٢-٣٤٧) وفى «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودى ص٨: ١٥٦ ط ١٩٥٥.

العروس

بعد أن استقر عليه الصلاة والسلام فى دار هجرته، بعث «زيد بن حارثة» إلى مكة ليصحب بنات النبى رضى الله عنهن، ومعه رسالة من «أبى بكر» إلى ابنه عبد الله، يطلب إليه فيها أن يلحق به، مصطحبا زوجته «أم رومان»، وابنتيه «أسماء، وعائشة» وكان مع زيد «أبو رافع» مولى النبى عليه الصلاة والسلام.

وتهيأ الجمع للسفر، وخرجوا صحبة يريدون دار الهجرة، وما تكاد الدنيا تسع «عائشة» من فرحتها وابتهاجها، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت «أم رومان» مذعورة:

«وابنتاه، واعروساه!»[1]

وأسرع «عبدالله بن أبى بكر، وطلحة بن عبيدالله، وزيد بن حارثة، وأبورافع» فردوا البعير النافر، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأعزاء.

* * *

وفى «المدينة» كان المصطفى يهيِّئ دارًا لعائشة.

أقام ﷺ فى «قباء» أربعة أيام، أسس خلالها أول مسجد فى الإسلام، وكان مقامه عليه الصلاة والسلام بقباء، فى مربد هناك لكلثوم بن هِدْم

(١) تاريخ الطبرى: حوادث الهجرة - والاستيعاب والإصابة فى ترجمة أم رومان رضى الله عنها.

الأنصارى[١].

وركب ناقته «القصواء» يوم جمعة، فأدركته صلاتها فى «بنى سالم بن عوف» فصلى أول جمعة بالمدينة، ثم استأنف مسيره فكلما مرّ بحى من أحياء يثرب خرج إليه رجاله مرحبين داعين:

«هلم إلينا يا رسول الله، إلى العدد والعدة والمنعة»

فيجيب شاكرًا: «خلوا سبيل ناقتى» حتى انتهت إلى باب «أبى أيوب الأنصارى» وفيه نزل رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه...[٢]

وتنافس المهاجرون والأنصار فى البناء، حتى تم بناء المسجد النبوى، ومن حوله تسع حجرات، بعضها من الجريد والطين، وبعضها من حجارة مرضومة، بعضها فوق بعض.

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد.

وفى واحد من هذه البيوت أقامت «سودة بنت زمعة» ترعى الشئون المنزلية، وتسهر على خدمة النبى ﷺ، وبنتيه أم كلثوم، وفاطمة...

أما «رقية» فكانت مع زوجها «عثمان بن عفان» حيث نزل بالمدينة.

وأما «زينب» فكانت «بمكة» مع زوجها «أبى العاص بن الربيع» ابن خالتها هالة، وكان لايزال مشركا، لم يفرق بينهما الإسلام بعد...

* * *

---

(١) السيرة الهاشمية: ١٣٩/٢ - وتاريخ الطبرى ٢٥٦/٢ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى: ٢٥٠/١.

(٢) السيرة ١٣٩/٢، وطبقات ابن سعد: ٤٩٩/١، ووفاء الوفا: ٢٠٦/١.

بعد أن تم بناء مسجده عليه الصلاة والسلام وبيته، واستقر المسلمون فى دار الهجرة واطمأن بهم المقام، آمنين من اضطهاد عدوهم، تحدث «أبوبكر» بعد الهجرة بأشهر معدودات، إلى محمد عليه الصلاة والسلام فى إتمام الزواج الذى عقده بمكة قبل ثلاث سنين.

فلبى المصطفى راضيا، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار إلى منزل صهره الصديق، حيث كان ينزل بأهله، فى بنى الخزرج.

وتصف «عائشة» يوم عرسها فتقول: «جاء رسول الله ﷺ بيتنا فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عذقين، فأنزلتنى ثم سوت شعرى ومسحت وجهى بشىء من ماء. ثم أقبلت تقودنى حتى إذا كنت عند الباب، وقفت بى حتى ذهب بعض نفسى، ثم أدخلتنى ورسول الله ﷺ جالس على سرير فى بيتنا، فأجلستنى فى حجره وقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك[1].

ووثب القوم والنساء فخرجوا، وبنى بى رسول الله فى بيتى، ما نُحرت علىَّ جزور ولا ذُبحت من شاة، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله» عليه الصلاة والسلام.

وحمل إليهما كذلك قدح من لبن، شرب المصطفى منه ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه...».

وكانت عائشة عروسا حلوة، خفيفة الجسم، ذات عينين واسعتين،

---

(١) السمط الثمين ص ٣٢- وتاريخ الطبرى: ١٧٦/٣ ووفاء الوفا: ٢٦٠/١ مع صحيح مسلم: كتاب النكاح، ح (١٤٤٢).

وشعر جعد، ووجه مشرق، مشرب بحمرة، وقد انتقلت إلى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التى شيدت حول المسجد، من اللبن وسعف النخيل، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير. وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر...[١].

وفى هذا البيت المتواضع بدأت «السيدة عائشة» حياة زوجية حافلة، ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد وبعده، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق فى حياة الرسول ﷺ والإسلام.

كانت صغيرة السن، أو طفلة - كما يحلو لذوى الهوى أن ينعتوها، وقال المستشرق بودلى: «منذ وطئت قدماها بيت محمد، كان الجميع يحسون وجودها. ولو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه، لكانت عائشة بنت أبى بكر... فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد...»[٢].

وأدق من هذا أن يقال إن «عائشة» قد اكتمل نموها فى هذا البيت، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عينى النبى ﷺ من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون بحرابهم[٣] إلى شابة ناضجة مجربة، تسألها امرأة فى مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل، فتجيبها: «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيها أحسن مما هما فافعلى..».

(١) السمهودى: وفاء الوفا ٤٥٩/٢: ٤٦١ وانظر فى صحيح مسلم، الحديثين ٢٠٨٢، ٢٤٣٨.

(٢) بودلى: الرسول، ص٩٣، ١٣٠ من الترجمة العربية.

(٣) صحيح البخارى: ١٨٢/٣ ط الشرقية. ومسند أحمد.

وتكره أن تلقى امرأة زوجها فى كآبة الحداد، وهى تروى الحديث عن رسول الله ﷺ، قال: «لايحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج».

وتظل، رضى الله عنها، تبارك الشهر الذى خُطبت فيه وتزوجته فيه، وتختاره لنساء قومها، تفاؤلا به.

وفى صحيح مسلم حديث عروة بن الزبير عنها، قالت: تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال، فأى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده منى؟ قال عروة: وكانت عائشة تستحب أن تُدخِل نساءها فى شوال[1]. رواه ابن سعد، من طريق الواقدى من حديث عروة بن الزبير عنها.

ولم يكن وجود «سودة» على مقربة منها، زوجة ثانية للزوج الذى أحبته «عائشة» بكل كيانها، يشغل بالها فى كثير أو قليل، فما غاب عنها قط أن لا مكان لسودة فى قلب الزوج، وإنما الذى كان يشغل عائشة، هو ذلك الحب العميق الذى ظفرت به «خديجة» قبلها من زوجها ﷺ، وتلك المكانة التى احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان!

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها، وهى راقدة فى مثواها بالحجون، من ثرى مكة،

---

(١) كتاب النكاح من صحيح مسلم. ومعه عن الواقدى بسنده، بلفظ مقارب، من حديث عمرة بنت عبدالرحمن، بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية، عن عائشة رضى الله عنها (طبقات ابن سعد: ٨/٦٠).

فما تستطيع «عائشة» أن تشتفى منها بدعابة قاسية، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتّى النضير، أو تفاخرها بأنها زُفَّت بكرا إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام، بكرًا لم تعرف قط رجلاً غيره.

ومع المشهور من حبه ﷺ لعائشة، حاولت أن تتجاهل هذه الضرة التى ماتت، فذهبت محاولتها عبثا. ذلك أن طيف «خديجة» بقى ماثلا أمام عينى زوجها، واسمها الحبيب على لسانه، وصوتها فى مسمعه، وذكراها حية ملء دنياه.

وزاد فى قسوة الموقف أن الشهور مضت والسنون، و«عائشة» لاتنجب لزوجها ولدا، على حين ولدتْ له «تلك العجوز من قريش» - كما كانت تصفها - البنين والبنات[1].

وكانت عائشة تعرف فى زوجها، وفى رجال قومها جميعا، ذلك الحب القوى للأبناء، والحرص على الإنجاب، ثم ترى من تعلق الزوج - الذى أحبته جهد الحب - ببنات خديجة، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف الزوج ومحبته، وما يأخذها به إيمانها من تجمل بالصبر فيما لاحيلة لها فيه.

وكانت بحيث تجد فى بنات محمد - زوجها الحبيب - ما يلطف من لهفتها على الأمومة، لو حاولت أن تتبناهن، لكنْ يبدو أنها ما تكاد تذكر أنهن، كذلك، بنات ضرتها «خديجة» حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن، بل تحس أن كل واحدة منهن، هى «خديجة» ذاتها، تثير

---

(١) فى ترجمتها بالإصابة، قال ابن حجر: «فقيل إنها ولدت من النبى ﷺ ولدا فمات طفلا، ولايثبت هذا» وفيها: «وذكر أبوسعيد الأعرابى فى معجمه بسند ضعيف جدا، أنها أسقطت من النبى ﷺ، سقطًا».

فيها شعورا مُرًّا بالعقم، وتذكرها فى كل آن بما كتب عليها من حرمان.

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء إخوتها من تفيض عليه عواطف أمومتها المحرومة كى لا يرهقها الكبت، فأنزلت ابن أختها أسماء «عبد الله بن الزبير» منزلة الابن، وبه كانت تكنى فيقال: «أم عبد الله»[١].

وحين مات أخوها «عبدالرحمن» ضمت إليها ابنه القاسم وابنته الطفلة، فيقول القاسم:

«فما رأيت والدة قط أبر منها».

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان، بما عرفت لها من موضع فى قلب المصطفى ﷺ لم تبلغه أخرى بعد خديجة، وما حظيت به من حبه وتدليله، وإيثاره...[٢].

* * *

(١) الاستيعاب: ١٨٨٣/٤ وفيه أنها استأذنت رسول الله ﷺ فى الكنية، فقال لها: اكتنى بابنك عبدالله بن الزبير. ومعه (طبقات ابن سعد: ٦٣/٨، ٦٦).

(٢) انظر مناقبها فى صحيح البخارى، وفضائلها فى صحيح مسلم.

الضرائر

وإذ هى سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها، آملة أن تستطيع به - ولو بعد حين - تناسى ضرتها التى ماتت، فوجئت بزوج جديدة تدخل بيت النبى، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة «سودة» وتشاركها فى حياتها الزوجية، يوما بيوم وليلة بليلة!

إنها «حفصة» بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله الإسلام به!

وروع «عائشة» أن يتزوج «محمد» ﷺ - عليها، وما تزوج قط على خديجة، حتى ماتت فى الخامسة والستين!

وآلمها ألا يحميها شبابها ومجد أبوتها، وحبُّ الرسول لها، من ذلك الهم البغيض المر،الذى لم يرض المصطفى لخديجة أن تذوقه ما عاشت!

وجاءت من بعد «حفصة» زوجات أخريات، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة...

كانت فيهن «زينب بنت جحش» الشابة الجميلة، و«أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب» الحسناء الأبية المترفعة، و«جويرية بنت الحارث» التى تأخذ العين بملاحتها، و«صفية بنت حيى» سليلة اليهود، الناعمة الساحرة، و«أم حبيبة» بنت أبى سفيان زعيم مكة وقائد جيشها...

ثم كانت هناك «مارية» المصرية الجذابة، أم ولده إبراهيم عليه السلام.

وريحانة بنت عمرو، حسناء بنى قريظة، لم يتزوجها ﷺ، لكنها أقامت فى مِلْكِه ما عاش.

وكان هذا بحيث يجعل «عائشة» تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام، لكن يخطئ من يزعم أو يتوهم أنها أساغت يوما مرارة الضرائر، ويجهل فطرة الأنثى من يظن أن «عائشة» استراحت من ألم حرمانها من الأبناء ووجدت فى كنيتها بأم عبد الله، أو فى أمومتها للمؤمنين جميعا، ما يطفئ شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب، عزَّ مثله فى الأزواج.

ولم تدر «عائشة» أول الأمر كيف تدفع هذا الضر المحتوم، فقد كانت تعرف - كما يعرف سواها - أن النبى ﷺ يتزوج لضرورة وحكمة، لا لإسراف وهوى...

وكانت تعلم - ويعلم الناس جميعا - أن عائشة هى الزوج الحبيبة المفضلة، أحظاهن عنده ﷺ. فهل تسكن إلى رضا واستسلام؟

كلا، بل حرصت جهدها على أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها فى قلب زوجها ﷺ مهما يكلفها الأمر، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصباها، أن تلزمهن موضعا بعينه لا يتجاوزنه.

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يتجرد من بشريته ولا يحمل «عائشة» أو غيرها من نسائه على التجرد منها.

فلتستجب «عائشة» لفطرتها دون كبت أوقهر، ولتكن لنسائه مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية، ولو جمحت بهن الغيرة، وكلفته ﷺ من أمرهن شططا.

* * *

وكانت «عائشة» بينهن أشدهن غيرة عليه، ونضالا فى سبيل الاستئثار بحبه.

وعذرها أنها التى تفتح لها قلبه بعد «خديجة»، وأنها وحدها التى تزوجها بكرا، وأنها «عائشة بنت أبى بكر».

وقد نظرت إلى ضرائرها تقيس نفسها إليهن، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بإنصاف، لتعرف من أين تأخذهن.

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن، ممن لا قبل لهن بمنافستها، مثل «سودة بنت زمعة»، و«زينب بنت خزيمة الهلالية» التى لم تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات.

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الضرائر مجتمعات، تظاهرهن «السيدة فاطمة الزهراء» التى أرادت لها «السيدة عائشة» منذ جاءت بيت محمد ﷺ، أن تكون لها ضرة...

وقررت أن تختار من هؤلاء، أبعدهن عن الخطر فى ميدان المنافسة، فترددت فى شجاعة ولباقة إلى «حفصة بنت عمر»[١] متخذة من تقاربهما فى الأبوة سبيلًا إلى هذا التودد.

واستجابت «حفصة» لهذا التودد وقد سرَّها أن تؤثرها «حبيبة المصطفى» بالمودة، وأن تعترف بأن بنت عمر، أقرب نساء النبى إلى بنت أبى بكر...

---

(١) فى حديث السيدة عائشة عن حزب النساء، أن حزبها كان فيه حفصة وسودة وصفية، والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر الأزواج رضى الله عنهن، انظر (السمط الثمين ص ٣٩).

واتخذت «عائشة» من «حفصة» موضع سرها منذ سمعت بزواج رسول الله ﷺ من «أم سلمة» فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس...

وهونت «حفصة» من خطر «أم سلمة» فإنها على جمالها كبيرة السن، وإن الجمال ليذبل سريعا فى مثل سنها، فلتُبق عائشة غيرتها لمن تستحق...

وفعلت عائشة...

ادخرت غيرتها للشابة الشريفة الحسناء «زينب بنت جحش» وراحت تراقبها وتحصى عليها أن أطال ﷺ مكثه لديها، إذ كانت تسقيه من عسل يحبه.

فى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها، قالت إن النبى ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا، فتواصيتُ أنا وحفصة: أيّتنا دخل عليها النبى ﷺ فلتقل: إنى أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له».فنزلت: ﴿يٰأيّها النبىُّ لِمَ تُحَرِّم ما أحَلَّ اللّهُ لَكَ﴾ الآيات.

وفى رواية بالصحيحين كذلك، عن عائشة، أن حفصة هى التى سقته من عكَّة عسل أهدتها لها امرأة من قومها، فأقسمت عائشة أن تحتال للأمر، فكان تواطؤها مع سودة بنت زمعة وصفية بنت حيى، أيتهن دخل عليها النبى ﷺ فلتقل: أكلت مغافير؟ ما هذه الريح التى أجد منك؟ فيقول: «سقتنى حفصة شربة عسل» فتقول كل منهن: جَرَسَتْ نحلُه العُرفط - أى رَعَتْه.

والعرفط شجر يثمر المغافير، مذاقها حلو، ورائحتها كريهة: فكان أن امتنع ﷺ من شرب العسل.

وأحست «سودة» ندما فقالت لصاحبتيها: «سبحان الله! والله لقد حرمناه!»

فنظرت إليها عائشة، أن اسكتى!

الحديث، بروايتيه، متفق عليه، عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

* * *

حتَى جاءت وافدات أخريات شغلن «عائشة» حينا عن أم سلمة وزينب، وإن عرفت أن هاتين أحب نساء النبى إليه بعدها...

وإحدى هؤلاء الوافدات من كندة، وثانية من مصر.

أما الأولى فكانت «أسماء بنت النعمان بن الأسود الكندية الجونية» التى أحست «عائشة» خطر جمالها منذ وقعت عليها عيناها، وقدرت أنها إذا لم تحل بينها وبين زوجها المصطفى فسوف تكلفها من أمرها عسرا.

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج!
دعت إليها حفصة، وأخرى ممن يحرصن على إرضائها، فقالت لها:
«قد وضع يده فى الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا».

واتفقن على موقف: أقبلن على العروس مهنئات، يجلونها للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضا الزوج العظيم ومحبته، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله إذا ما دخل عليها!

وفعلت المسكينة!

لم تكد تراه ﷺ مقبلا عليها، حتى استعاذت بالله، وفى حسابها أنها تستجلب محبته ورضاه!

فصرف رسول الله ﷺ وجهه عنها وقال:

«لقد عُذْتِ بمعاذ»...

وغادرها من لحظته وأمر أن تُمتَّع وتلحق بأهلها[1].

فبعثت إليه، أو بعث أبوها، من يتوسط لردها ويحدث عما كان من نسائه معها، فلم يملك ﷺ، إلا أن يبتسم ويقول:

«إنهن صواحب يوسف، وإن كيدهن عظيم!».

وبقى عند كلمته، فلم يمسك تلك التى عاذت بمعاذ، وتخلصت عائشة من منافسة خطرة!

* * *

وأما «مارية» المصرية، فلعل «عائشة» لم تأبه لها أول الأمر. إذ كانت أمة قبطية أجنبية وضعها الرق فى منزل دون منازل أمهات المؤمنين.

وربما استكثرت «عائشة» عليها أن تعدها منافسة لها.

حتى نبأتها حفصة بما كان من خلوه، عليه الصلاة والسلام، فى بيتها

---

(١) اختلفت الروايات فى اسم التى استعاذت بالله عندما دخل عليها ﷺ، فقيل هى أسماء بنت النعمان، وقيل هى ابنة عم لها من كندة، كذلك (السيرة ٢٩٧/٤). وفى الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (١٢٣/٣) أوفاطمة بنث الضحاك الكلابية (١٣٩/٣) وانظر: المحبر لابن حبيب (٩٤) وعيون الأثر (٣١٠/٢).

بمارية، فكأنما أشعلت فيها النار[١].

ولجت عائشة فى غيرتها، والنساء يظاهرنها على النبى ﷺ، غيظا من «مارية» التى حملت دونهن من المصطفى، وترفق ﷺ بهن ما استطاع، مقدرا بواعث هذا التظاهر، لكنهن تمادين فى اللجاج إلى حد الشطط، لطول ما أملى لهن ﷺ.

* * *

وما كان ﷺ فارغ البال لذلك الشطط النسوى المسرف، ولا كان بحيث يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل، فاعتزلهن جميعا فى صرامة لم يألفنها، وشاع فى المسلمين أن النبى ﷺ طلق نساءه، وانكمشت المتظاهرات فى بيت النبى حزينات نادمات، فقد جاوز الأمر ما قدَّرن، وما لهن من عاصم فى المحنة، إذا لم تدركهن رحمة الله وعفو رسوله عليه الصلاة والسلام.

على أن «عائشة» - قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات - لم تفزع لغضب رسول الله، بقدر ما فزعت لما مسه ﷺ من مشقة. وكان قلبها يتمزق، كلما تمثلت الحبيب يأوى إلى خزانة له ذات مشربة[٢]، يرقى إليها على جذع خشن من جذوع النخل، ويجلس غلامه «رباح» على عتبتها

---

(١) يأتى حديث تظاهرهما على النبى ﷺ، ونزول سورة التحريم، بمزيد تفصيل فى مبحثى: حفصة، ومارية، رضى الله عنهما.

(٢) انظر وصف المشربة التى اعتزل فيها الرسول نساءه، بكتاب (وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى). للسمهودى: ٤٦٣/٢.

مع المتفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى الإيلاء والتحريم.

ما أقام عليه الصلاة والسلام بها، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق، ولا من زوج يسكن إليها ويرتاح.

ومضى شهر بأكمله والمصطفى فى شغل عنهن، و«عائشة» فى شغل به، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر، والمسلمون يرقبون نبيهم عليه الصلاة والسلام فى عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته فى موضوع نسائه، إلا ما كان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه[١].

* * *

ولكن النبى لم يطلق نساءه، ولطف الله بهن فاكتفى بإنذارهن إن لم يتبن فعسى ربه إن طلقهن، أن يبدله أزواجا خيرا منهن![٢] وقال: «ما أنا بداخل عليهن شهرا» من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى[٣].

وطارت البشرى إلى أمهات المؤمنين أن النبى ﷺ عائد إلى بيته بعد إيلائه منهن تسعا وعشرين ليلة، فَوَقَفْنَ بأبوابهن فى لهفة يلتمسن نظرة إلى وجهه الكريم إذ يعود من معتزله، على حين بقيت «عائشة» داخل بيتها تستعد للقاء الحبيب العائد، إذ كانت تعرف عن يقين أن إليها أولَ المطاف!

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها. ولاذت بكل ما استطاعت من تجمل لتتلقاه قائلة فى عتاب رقيق: «بأبى أنت وأمى يا نبى الله! قلتُ كلمة لم ألق لها بالا فغضبت علىَّ»

(١-٢) يأتى حديث عمر، فى مبحث ابنته حفصة رضى الله عنها.

(٣) بلفظ عمر، رضى الله عنه، فى الحديث المتفق عليه.

وإذ أقبل عليها مصغيا، استطردت تقول فى دلال ودعابة حلوة: «أقسمت أن تهجرنا شهرا، ولما يمض منه غير تسع وعشرين؟».

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام، وقد سره أنها كانت تحصى ليالى الفراق عدًّا..

وقال لها إن شهرهما ذاك، تسع وعشرون ليلة..

* * *

ونجت «عائشة» من محنة الهجر، ومن قبل نجاها الله من محنة فادحة منكرة، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها، وأوشكت على الضياع...

تلك كانت محنة الإفك، ننقلها فيما يلى، من حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها.

محنة الإفك

حدث ذلك فى نحو السنة السادسة للهجرة، فى غزاة بنى المصطلق، بالمريسيع، وفيها قال أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله عز وجل مما قالوا.

وكان عليه الصلاة والسلام فى خروجه لغزوة بنى المصطلق، أقرع بين نسائه على عادته، كلما خرج فى سفر أو غزوة، فخرج سهم «عائشة».

وانطلقت فى صحبته سعيدة هانئة.

وكانت فألا حسنا على القائد المصطفى، فعاد من غزاته منتصرا، وسار ركبه الظافر يغذ السير إلى المدينة التى كانت إذ ذاك تهزج بأغانى النصر..

وفى الطريق - قريبا من المدينة - أناخ العسكر فباتوا بعض الليل، ثم أذن فيهم بالرحيل، فارتحلوا، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا.

وبلغ الركب المدينة فى مطلع الصبح، واقتيد بعير أم المؤمنين إلى مناخه أمام بيتها، وأنزل الهودج فى رفق، فإذا أم المؤمنين ليست فيه!

ولبث ﷺ وصحبه ساعة من نهار، حائرين قلقين، وانطلق بعضهم فى الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة...

حتى بدت من بعيد، تركب بعيرا، يقوده رجل عرفوا فيه «صفوان ابن المعطل السلمى». واطمأن النبى ﷺ، أنْ وجدها بخير. وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئا.

قالت رضى الله عنها[١].

«خرجت لبعض حاجتى، قبل أن يؤذَّن فى الناس بالرحيل، وفى عنقى عقد لى فيه جزع «ظفار» - مدينة باليمن - فلما فرغتُ انسل من عنقى ولا أدرى. فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم - وأنا بعيدةٌ - فرحلوا بعيرى وأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه - إذ كنت خفيفة لم يُثقلنى اللحم - فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يَشكُّوا أنى فيه. ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس...

«فتلففت بجلبابى، ثم اضطجعت فى مكانى، وعرفت أنْ لو قد افتُقِدتُ لرُجِعَ إلىَّ، فوالله إنى لمضطجعة، إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى،وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف علىَّ فعرفنى - وكان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآنى قال:

---

(١) حديث الإفك مروى بتمامه فى (الصحيحين) وجمهرة كتب الأسانيد والسنن وفى طبقات ابن سعد، والسيرة لابن إسحاق - والنقل منه (٣/٣) مع زيادة من الصحيحين، وعيون الأثر (٢/٩٦-١٠٣) وهو فيها جميعا من رواية ابن شهاب الزهرى، بسنده عن عائشة رضى الله عنها.

«إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! ما خلَّفكِ يرحمك الله؟!

فما كلمتُه.. ثم قرَّب البعير فقال: اركبى.

واستأخر عنى، فركبت، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت، حتى أصبحت ونزل الناس. وطلع الرجل يقود بى».

وأوت «السيدة عائشة» إلى فراشها فنامت هادئة، والمدينة يقظى لا تنام! ذلك أن قوما من اليهود والمنافقين، على رأسهم «عبد الله بن أبِّى ابن سلول» - الذى ما برئ من حقده على النبى ﷺ وما فتئ يكيد له - تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات، ليشفوا وترهم وأحقادهم..

وانتقل حديث الإفك من دار «ابن سلول» ومن لفّ لفه، إلى أحياء المدينة، ورددده ناس من المسلمين، فيهم «حسان بن ثابت الأنصارى» شاعر النبى ﷺ، و «مسطح بن أثاثة بن عباد» قريب أبى بكر وموضع بره، و «حمنة بنت جحش» ابنة عمة النبى ﷺ وأخت زوجته زينب!..

وبلغ الحديث أذنى محمد ﷺ، كما بلغ مسامع أبى بكر وأم رومان فصكها صكا! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه «عائشة» بالشائعة الرهيبة؛ إذ كانت منذ عادت من غزوة بنى المصطلق، معتلة تشتكى شكوى شديدة، فظلت لا تدرى ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شىء، إلا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة، وقد عودها إذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنانه، فأمست هذه المرة ولا حظَّ لها من ذلك العطف والحنان إلا أن يدخل عليها من حين إلى

حين، وعندها أمها تمرضها فيسأل:

«كيف تيكم؟» ثم ينصرف، لا يزيد على ذلك!

ولم تشأ أن تسأله عما يريبها من جفائه، فقد كان يبدو لها واجما مشغول البال، وكانت تحس بقلبها أنه ﷺ يكابد هما ثقيلا، فتماسكت متجلدة، وهى تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التى غشيت دنياها.

فتقول «السيدة عائشة»:

«حتى وجدتُ فى نفسى فقلت، حين رأيت ما رأيت من جفائه لى: يا رسول الله، لو أذنت لى فانتقلتُ إلى بيت أمى فمرضتنى؟ قال: لا عليك.

«فانتقلت إلى أمى ولا علم لى بشىء مما كان، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة...

«فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى «أم مسطح» بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف - وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبى بكر - فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت: تَعِسَ مِسْطَح!

قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا!

فقالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟

قلت: وما الخبر؟

قالت: نعم والله، لقد كان....

فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت فما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى، وقلت لأمى:

– يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا؟

قالت: أى بنية! خفِّضى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثَّرن وكثر الناس عليها!»

لكن «عائشة» باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم.

* * *

وبعيدا عنها كان ﷺ يعانى مثل الذى تعانيه: قلبه يحدثها أنها ضحية اتهام ظالم فادح، وأذناه تصغيان إلى الشائعات المرجفة بالسوء. وقد قام فى الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق؟... والله ما علمت عنهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى».

فتكاد أفئدة المسلمين تتقطع تأثرا لنبيهم فى محنته وعذابه، ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة، وعقيلة حرة، فتختلط أصواتهم فى طلب الانتقام والتأديب، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر.

وتمضى عائشة رضى الله عنها فى وصف محنتها فتقول:

«ونزل رسول الله ﷺ فدخل علىَّ، فدعا «على بن أبى طالب وأسامة ابن زَيْد» فاستشارهما.

فأما أسامة فأثنى علىّ خيرا وقال: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم منها إلا خيرا، وهذا الكذب والباطل.

وأما «علىّ» فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك.

«فدعا رسول الله ﷺ جاريتى «بريرة» ليسألها: فقام إليها «على بن أبى طالب» وهو يقول:

- اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فتقول «بريرة»: والله ما أعلم إلا خيرا، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله!».[1]

ويخرج ﷺ مثقل الكاهل محزون الفؤاد.

ثم يعود بعد حين إلى بيت أبى بكر، فإذا عائشة هناك مقرحة الأجفان تبكى، فتبكى لها زائرة عندها من الأنصار، وأبواها ينظران إليها فى صمت وأسى.

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك، جلس عليه الصلاة والسلام، يحدث عائشة، قال:

«يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله. وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبى إلى الله، إن الله يقبل التوبة من عباده».

---

(١) انظر تعليق الإمام النووى فى شرح مسلم، والحافظ ابن حجر فى فتح البارى، على موقف الإمام على كرم الله وجهه (اللؤلؤ والمرجان، هامش ح١٧٦٣) ٢٥٩/٣.

فما هو إلا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت، وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها، فالتفتت إلى أبويها، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذ سكتا لا يحيران جوابا، صاحت فيهما بملء عذابها: ألا تجيبان؟ قالا معا بصوت تخنقه العبرات: والله ما ندرى بم نجيب!

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل فى كيانها، ثم اتجهت إلى زوجها تقول فى إصرار:

«والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدًا، والله إنى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس، والله يعلم أنى بريئة، لأقولَنَّ ما لم يكن. ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون، لاتصدقوننى».

وحاولت أن تتذكر اسم «يعقوب» لتتأسى به فما استطاعت، واستطردتْ: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ثم تحولت، واضطجعت على فراشها.

فلم يبرح النبى ﷺ مجلسه عندها، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحى، فسُجى بثوبه، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه.

وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما، فرقًا وقلقا، وأما هى فما فزعت ولا خافت، إذ كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها.

ثم سُرِّى عن رسول الله، ﷺ فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول: «أبشرى يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك!»

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جاثم، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح، فأشارت إلى عائشة أن تقوم إلى زوجها، فقالت عائشة فى إباء: «والله لا أقوم إليه، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذى أنزل براءتى».

ثم التفتت إلى أبيها وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا، فقالت له: «يا أبتاه هلا كنت عذرتنى!» فأجاب: «أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم؟».

وأما النبى ﷺ، فرنا إليها فى عطف وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم، وخرج إلى المسجد وتلا على الناس آيات النور:

إِنَّ ٱلَّذِينَ
جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ
لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ
فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم
مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا
بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

وبأمره تعالى، جُلِد الذين تقولوا بالفاحشة:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

صدق الله العظيم (سورة النور: ٤)

* * *

العروة الوثقىٰ

وعادت السيدة «عائشة» إلى مكانها فى البيت المحمدى، تحف بها هالة من آيات النور، نصرا إلهيًّا جعل براءتها من الإفك الأثيم، قرآنا يتعبد به المسلمون...

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة، مزهوة بصباها ودلالها وحظوتها عند الحبيب، وتباهى ضرائرها قائلة:

«أية امرأة كانت أحظى عند زوج منى!»

ولاتفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام:

«حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى».

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟

قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟ قال: «ثم عمر بن الخطاب...» فعدَّ رجالا.[1]

وعن عائشة رضى الله عنها قالت:

قال لى رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم متى كنت عنى راضية وإذا كنت علىَّ غَضْبَى» قلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال ﷺ: «أما إذا كنت راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنتِ غضبى قلتِ: لا وربِّ

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب (٢٠١/٢) ومسلم فى كتاب الفضائل. والنقل من البخارى.

إبراهيم». قلتُ: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمَك» متفق عليه[١].

و «حديث أمِّ زرعٍ» مشهور، خلاصته أن إحدى عشرة نسوة جلسن يتحدثن عن أزواجهن، وتعاهدن أن لا يكتمن من أحوالهم معهن شيئا. فتحدثت كل منهن عن زوجها وما تشكو من أمره أو من أبويه، فلما جاء دور أخراهن «أم زرع» تحدثت عن زوجها «أبى زرع» فأثنت عليه أطيب الثناء، وأسهبت فى وصف كرم سجاياه وفيض خيره وجميل عشرته.

قالت السيدة عائشة بعد أن حكت خبرهن؛ قال لى رسول الله ﷺ: «كنتُ لكِ كأبى زرع لأمِّ زرع»[٢].

وكان المسلمون يعلمون مكانتها عند النبى ﷺ، فيتحَرَّوْن بهداياهم يوم عائشة، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ [٣]. ومع أنه كان يرسل لكل زوجة نصيبها مما يتلقى وهو فى بيت عائشة، إلا أن الغيرة استفزتهن، فتشاورن فى وضع حد لما يلقين من بنت أبى بكر.

وانتهى بهن الرأى إلى أن يلتمسن من «السيدة فاطمة الزهراء» مخاطبة أبيها ﷺ فى الأمر. واستجابت رضى الله عنها فدخلت على أبيها

---

(١) صحيح مسلم: باب فضل السيدة عائشة (ح: ٢٤٣٩) والنقل منه. وأخرجه البخارى فى كتاب الغيرة (١٨٦/٢). وابن سعد بسنده إلى عروة بن الزبير، عن خالته عائشة رضى الله عنها (الطبقات الكبرى ٦٩/٨).

(٢) متفق عليه من فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها.
وشرحه القاضى عياض فى كتاب مفرد، نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، ح (٢٤٤١) واللفظ منه. وصحيح البخارى فى كتاب الهبة. والإصابة ١٤٠/٨.

ﷺ وعائشة عنده فقالت: يا أبى، إن نساءك أرسلننى إليك، وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة، فقال لها: «أى بنية، ألستِ تحبين ما أحب؟».

قالت: بلى. قال: «فأحِبِّى هذه».

فعادت إليهن فأخبرتهن بالذى سمعت من أبيها ﷺ، وقالت: «والله لا أكلمه فيها أبدًا»[١].

* * *

وقد ظلت السيدة عائشة رضى الله عنها، تبارك ما عاشت، الشهر الذى خطبها فيه النبى ﷺ، وبنى بها فيه، فكانت تستحب أن تزوج النساء من آلها فى شوال، وتقول:

«تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال، فأى نساء رسول الله ﷺ كانت أحْظَى منى؟»[٢].

وحين كانت الغيرة تشتط بها، كان النبى ﷺ يوسع لها العذر فيقول: «ويحها، لو استطاعت ما فعلت!»

وفى صحيح الحديث عن عروة بن الزبير، عنها: أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا، قالت: فغرتُ عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال: «ما لكِ يا عائشة؟ أغِرتِ؟» فقلت: وما لى لا يغار مثلى على مثلك؟[٣].

وصدقت «عائشة»...

---

(١) صحيح مسلم، الفضائل: ح (٢٤٤٢). والإصابة، من طريقه، فى ترجمتها رضى الله عنها.

(٢) صحيح مسلم، كتاب النكاح: ح (١٤٢٣).

(٣) صحيح مسلم، ح (٢٨١٥).

وكتبت السيدة الزميلة «الدكتورة زاهية قدورة»، فى رسالتها للدكتوراه عن «عائشة أم المؤمنين»: «إن الغيرة لم تكن لتتغلغل إلى أعماقها، بل كانت تقف عند الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل... وإن الأمر لم يكن ليدخل فى باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الإسلامى من الإفرنج أن يصفوها... ولعل ما يرد على هؤلاء، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر، وتفانيهن فى إرضاء زوجهن رسول الله».

سبحان الله! وما لها لايغار مثلها على مثله؟

هل كانت غيرتها الجامحة - بعد هذا كله - إلا مظهر حب عميق لزوجها المصطفى، ودليل تعلق بالرسول ﷺ، ورغبة لاتقاوم فى الاستئثار به؟

وفيمَ تكلفنا نفى هذه الغيرة عنها ووصفنا ما بينها وبين ضرائرها «بالاتفاق الرائع».

لقد غارت من السيدة خديجة رضى الله عنها، وقد ماتت ولم ترها عائشة قط. ولم تنج من غيرتها حفصة، وإنها لأقرب ضرائرها إليها، وفى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها: «أن النبى ﷺ أقرع بين نسائه، فى سفر «فخرجت القرعة لعائشة وحفصة»، وكان النبى ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيرى وأركب بعيرك تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى. فركبت فجاء النبى ﷺ إلى جَمَل عائشة، وعليه حفصة، فسلم عليها ثم سار حتى نزلوا، وعائشة تدعو على نفسها تقول: (يارب سلِّط علىَّ عقربا أو حية تلدغنى) ولا أستطيع أن أقول له شيئًا» - متفق عليه.

الوداع

كانت السنوات التى تلت محنة الإفك حافلة بجليل الأحداث...

والسيدة «عائشة» مع الحبيب ﷺ تشهد انتصاره، وتتلقاه عائدا مظفرا من مغازيه ومشاهده، وترى دعوته وهى تنتشر وتمتد، كنور الفجر يغزو الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل.

ثم آن للقائد أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة...

وآن للرسول البشر، أن يرجع إلى ربه، بعد أن بلغ رسالته.

عاد من حجة الوداع سنة عشر إلى «المدينة» فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشرة، فخرج إلى البقيع يحيى الراقدين هناك ويستغفر لهم. قالت عائشة، فيما أسند ابن إسحاق عنها: رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول: «وا رأساه!»

فقال: «بل أنا والله يا عائشة وا رأساه!»

ثم قال: «وما ضرك لو مُتِّ قبلى فقُمت عليك، وكفنتُكِ، وصليتُ عليك، ودفنتك؟»

ردَّت وقد هاجت غيرتها:

قلت: «ليكن ذلك حظ غيرى! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك! فتبسم رسول الله ﷺ.

وتتامَّ وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعزَّ به وهو فى بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يُمرَّض فى بيتى فأذِنَّ له»[١].

وفى (الصحيحين) من حديثها رضى الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يسأل فى مرضه الذى مات فيه، يقول: «أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء، فكان فى بيت عائشة حتى مات عندها»[٢].

وانتقل إلى بيت الحبيبة تمرضه، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، وقد ثقل، فقال: «مروا أبا بكر أن يصلى بالناس» فقالت عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى ما يقم مقامك لا يُسمع الناس، فلو أمرتَ عمر؟ فقال: «مروا أبا بكر أن يصلى بالناس...» الحديث[٣].

قالت عائشة: «لقد راجعت رسول الله ﷺ فى ذلك، وما حملنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل رسول الله ﷺ، عن أبى بكر»[٤]. قالت:

«وقبض رسول الله بين سحرى ونحرى... فمن سفهى وحداثة سنى أنه ﷺ قبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى»[٥].

* * *

(١) بلفظ ابن إسحاق، فى السيرة (٢٩٢/٤) بسنده عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) متفق عليه من حديثها (فضائل الصحابة فى اللؤلؤ والمرجان: ١٥٨٣).

(٣-٤) متفق عليه من حديثها (ك الصلاة، اللؤلؤ: ح٢٣٩، ٢٣٧).

(٥) ابن إسحاق فى (السيرة ٣٠٥/٤) بإسناده عن عباد بن عبدالله بن الزبير عنها. وتاريخ الطبرى: ١٦٧/٣ والنقل منه - ونحوه فى صحيح مسلم، كتاب الفضائل: ح(٢٤٤٤).

وكادت تكون فتنة، عصم الله المسلمين منها حين ألهم «أبا بكر» أن يقف فى المسلمين فيقول:

«أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنه الله حيٌّ لا يموت...»

ثم تلا فيهم قوله تعالى فى كتابه المنزل على رسوله ﷺ:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها «أبو بكر» يومئذ[١].

ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ فى بيت «عائشة».

وتولى أبوها الصديق الخلافة من بعده...

* * *

وعاشت «عائشة» لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة، والفقيهة الأولى فى الإسلام.

قال مسروق بن الأجدع الهمدانى، التابعى الفقيه الإمام القدوة: «لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها فى الفرائض».

وكان إذا حدث عنها قال: «حدثتنى الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله...»[٢].

---

(١) صحيح البخارى، مناقب أبى بكر، رضى الله عنه.

(٢) من ترجمتها فى طبقات ابن سعد: ٨/٦٦-٧٧ والاستيعاب: ٤/١٨٨٣، والإصابة ٨/١٤٠.

وقال الإمام «الزهرى»: «لو جُمِعَ علم عائشة، إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.»

وقال هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه: «ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة» وعن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه قال: «ما أشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما».

عاشت لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية، وتشارك فى حياة الإسلام أقوى مشاركة، وتظهر فى معركة الفتنة الكبرى التى صنعت التاريخ الإسلامى منذ مقتل «عثمان بن عفان» رضى الله عنه.

* * *

ثم توفيت رضى الله عنها فى السادسة والستين من عمرها، بعد أن تركت أعمق الآثار فى الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ منها ألفان ومائة وعشرة أحاديث، فى الكتب الستة.

وكانت وفاتها - على الأرجح - ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين، وصلى عليها «أبو هريرة» رضى الله عنهما ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل إلى البقيع - كما أوصت - على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة، فلم تُرَ ليلةٌ أكثر ناسا منها.

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين، وقد ألغى الموت ما كان بينها

وبينهن من غيرة وتنافس، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذى توهَّج أعواما فى ذلك الكيان الرقيق اللطيف.

وفى (صحيح البخارى) أن عائشة رضى الله تعالى عنها أوصت عبد الله بن الزبير - ابن أختها أسماء - أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع[١].

ونزل معها إلى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبدالله ابنا أخيها محمد، وعبدالله ابن أخيها عبدالرحمن، وكلهم من رواة الحديث عنها[٢].

* * *

ونامت أخيرا، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت فى السادسة من عمرها، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التى عاشتها ملء الحياة، من الشهر المبارك، شوال، الذي شرفت فيه بالزواج من خير البشر، خاتم النبيين عليهم وعليها السلام...

* * *

(١) وانظر وصف قبرها وموضعه، فى (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودى: ٣/٩١٣.

(٢) طبقات ابن سعد، والاستيعاب، والإصابة، وتهذيب التهذيب: فى ترجمتها رضى الله عنها.

(٤)

حَفْصَة بنتُ عُمَرَ

حَافظة المصحَف الشريف

«.. يـا بنية لايغـرنَّكِ هـذه التى أعجبهـا حسنُها وحبُّ الرسول ﷺ إياها. والله لقد علمتِ أن رسولَ اللَّهِ لايحبك، ولـولا أنا لطلقك»

عمر بن الخطاب رضى الله عنه
فى (الصحيحين)

الأرملة الشابة

لم يشهد «بدرا» من بنى سهم غير رجل واحد، هو الصحابى الجليل «خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى» وكان من أصحاب الهجرتين، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها، ثم إلى المدينة، وشهد «أحدا» كذلك، ثم مات بعدها فى دار الهجرة، من جراحة أصابته فى «أحد» وترك أرملته «حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية».[1]

وتألم «عمر» لابنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها. وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها. وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته فى حزنها، فبدا له - بعد تفكير طويل - أن يختار لها زوجا، قد تأنس إلى صحبته فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد...

* * *

وقع اختياره على «أبى بكر الصديق» صفىّ النبى ﷺ، وصهره، وصاحبه، وأول رجل آمن وبايع...

وارتاح للفكرة، فإن أبا بكر فى رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة

(١) انظر السيرة: ٦/٣ وطبقات ابن سعد: ٨١/٨، ٣٤١ وتاريخ الطبرى: ١٧٧/٣ - وترجمة خنيس فى طبقات ابن سعد، والاستيعاب، والإصابة. ومعها: وفاء الوفا: ٩٠٠/٣. وانظره فى نسب بنى سهم فى جمهرة الأنساب ١٥٦، والمحبر لابن حبيب٨٣، ونسب قريش ٤٠٢.

طبعه، كفيل بأن يحتمل «حفصة» بما ورثت عن أبيها من شدة الغيرة وصرامة الخلق، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر.

وأرضاه أن يصهر إلى أحب رجل إلى رسول الله ﷺ.

ولم يتردد عمر ، بل سعى من فوره إلى أبى بكر، فحدثه عن «حفصة» والصديق يصغى إليه فى عطف ومواساة.

ثم عرض عليه أن يتزوجها، وفى يقينه أن «أبا بكر» سيرحب بالشابة التقية، ابنة الرجل الذى أعز الله الإسلام به.

لكن «أبا بكر» أمسك لا يجيب!...

وانصرف «عمر» لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض «حفصة» بعد أن عرضها أبوها عليه.

وسارت به قدماه إلى دار «عثمان بن عفان» وكانت زوجه السيدة «رقية بنت محمد» ﷺ قد مرضت بالحصبة - بعد عودتها من الحبشة - والمسلمون يلقون عدوهم فى بدر، ثم ماتت بعد أن تم النصر للمؤمنين[1].

وتحدث عمر إلى عثمان، فعرض عليه «حفصة» وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبى بكر، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه، فلعل الله قد اختار لحفصة «عثمان» وهو تعالى، يعلم أن الرجلين أصلح للأرملة الشابة.

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما، جاءه بعدها فقال:

---

(١) انظر حديث السيدة رقية رضى الله عنها فى كتابنا «بنات النبى» ﷺ.

«ما أريد أن أتزوج اليوم!»[١].

فاغتاط «عمر» رضى الله عنه من قسوة الموقف، ثم اشتد به الغضب، فانطلق إلى النبى ﷺ يشكو صاحبيه..

أمِثلُ حفصة - فى شبابها وتقواها وشرفها - تُرفَض؟

وممن؟ من أبى بكر وعثمان، صاحبى الرسول ﷺ وصهريه، وأوْلى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر، وأحق الصحابة بألا يردَّا مثله صهرا؟

واستأذن «عمر» على النبى ﷺ، وما يملك نفسه من غضب وقهر، فتلقاه عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا، وأقبل عليه يسأله فى عطف ومودة عما يؤلمه...

ونفض «عمر» لدى النبى الكريم ما يرهقه ويقهره، وحدثه عما كان من «أبى بكر بن أبى قحافة، وعثمان بن عفان»...

فتبسم ﷺ وقال:

«يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة»[٢].

وردَّد عمر مأخوذا بجلال المفاجأة: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؟»

---

(١) هذه رواية الاستيعاب «١٨١١/٤» والإصابة ٥١/٨، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ومعها رواية بطبقات ابن سعد من عدة طرق (٨١/٨) والسمط الثمين ٨٣، أن عمر عرض حفصة على عثمان، ثم على أبى بكر، رضى الله عنهم.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨٢/٨، والاستيعاب: ١٨١١/٤، والإصابة ٥١/٨ وعيون الأثر ٣٠٢/٢، والسمط الثمين ٨٣.

وأشرقت فى خاطره لمحة مضيئة. أيتزوج النبى ﷺ، ابنته حفصة؟ ذاك والله شرف لم تتطاول إليه أمانيه.

وقام إلى النبى ﷺ يصافحه متهللاً، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض.

وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته، وإلى أبى بكر وعثمان، وإلى المدينة كلها، بشرى الخطبة المباركة.

ولقيه أبو بكر، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته، فمد يده مهنئًا معتذرًا يقول:

«لاتَجِدْ علىَّ يا عمر، فإن رسول الله ﷺ، ذكر حفصةَ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها»[1].

ومضى كلاهما إلى ابنته:

أبوبكر ليهون على «عائشة» من وقع الخبر.

وعمر ليبشر «حفصة» بأكرم زوج.

وباركت المدينة يد النبى ﷺ وهى تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة.

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من «أم كلثوم بنت محمد» فى جمادى الآخرة، من السنة الثالثة للهجرة.

وتهيأ بيت النبى لاستقبال «حفصة» التى تزوجها المصطفى فى شهر

---

(١) ترجمة السيدة حفصة أم المؤمنين، فى (طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة) ومعها عيون الأثر ٣٠٢/٢ والسمط: ٨٣.

شعبان، من تلك السنة على الأرجح[١].

أسند ابن سعد عن سعيد بن المسيب، سيد التابعين، وذكر حديث الخطبة؛ قال:

«فخار الله لهم جميعا: كان رسول الله لحفصة خيرا من عثمان، وكانت بنت رسول الله ﷺ لعثمان، خيرا من حفصة»[٢].

---

(١) ابن سعد: ٨٣/٨ تاريخ الطبرى: ٩/٣، الاستيعاب، الإصابة، وفاء الوفا للسمهودى: ٩٠٠/٣.

وأرخ الذهبى زواجها: فى شهر رمضان (العبر: وفيات السنة الثالثة للهجرة).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨٣/٨.

السرُّ المُذَاع

جاءت العروس، وفى البيت «سودة» و «عائشة».

أما «سودة» فرحبت بها راضية، وأما «عائشة» فغاظها أن يأتيها زوجها ﷺ بضرة، وما فعل ذلك قط مع «خديجة».

وضايقها ألا تجد فى «حفصة» مغمزا، فهى مَنْ هى، شبابا وتقى، وعزة نسب...

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها، بشبابها الغض وأبيها الصاحب الأول أحد العشرة. وحظ «حفصة» من هذين، ليس بالذى ينكر أو يجحد.

و«عائشة» كانت تضيق بيوم «سودة» التى ما اكترثت لها عائشة كثيرا حتى تنازلت لها عنه، فكيف يكون موقفها حين يبيت زوجها عند حفصة؟

وحارتْ فى أمرها، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضى عمر ويباركه الإسلام والمسلمون.

وسكتت على مضض وغيرة، إلى أن وفدت على بيت النبى أزواج جديدات، فتناست «عائشة» ما كانت تجد من «حفصة» وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها إليها، وأجدرهن بأن تقف معها...

وأدركت «حفصة»، أنها إذا جاز لها أن تنكر ضرة لها، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هى «عائشة» وقد سبقتها إلى بيت النبى ﷺ، وإلى قلبه.

وربما جرح شعورها أن تعرف حب المصطفى لعائشة، لكنها حين توالت الضرائر، وقفت دون تردد، إلى جانب بنت أبى بكر.

وكان «عمر» يرقب ابنته حفصة فى قلق مبهم، فيريبه هذا التقارب - غير الطبيعى - بين ابنته وبين بنت أبى بكر، فلما استبان له ما وراء تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها من قلبه. فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بعائشة الحبيبة، ويردها عن جموحها بمثل قوله:

«أين أنتِ من عائشة، وأين أبوك من أبيها؟»

وسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقا؟ قالت بأنه حق فزجرها قائلا:

«تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله... يا بنية، لا يغرنَّك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها، والله لقد علمتِ أن رسول الله ﷺ لايحبك، ولولا أنا لطلقك!»[1]

ويمضى عن «حفصة» وفى حسابه أنه قد ردها إلى ما يبغى لها من

---

(١) متفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى الإيلاء والتحريم.

خضوع ومجاملة، لكنها كانت معتدة بذاتها مدلّة بشخصيتها، لا ترى فى منزلة عائشة أو سواها ما يجور على مكانتها، أو ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس فى طبعها. بل تركت نفسها على سجيتها، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها، عليه الصلاة والسلام، حين يبدو له من الأمر ما لا يرضيها، وربما سمعت منه حديثا فردت عليه غير متهيبة إذا بدا له وجه آخر فيما يقول. فى الصحيح من حديث جابر بن عبد الله الأنصارى عن أم مبشر الأنصارية، رضى الله عنهم، أنها سمعت رسول الله ﷺ عند حفصة، يذكر أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال: «لايدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها» قالت حفصة: بلى يا رسول الله! وتلت الآية: ﴿وإنْ منكم إلا واردُها، كانَ علَىٰ ربِّك حتمًا مقضِيًّا﴾ فقال النبى ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1].

ولعل إباءها هو الذى فرض عليها أن تدارى غيرتها من «عائشة» وتحاول أن تلتمس فى صحبة هذه الشابة المرحة، ومشاركتها فى معاركها الصغيرة ومواقفها الذكية، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوى...

ويرخى لها النبى ﷺ ما استطاع، ويشفع لها عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته، وبنوتها لأعز صاحبين.

حتى تظاهرتا عليه، ﷺ، فكان الهجر واعتزاله، ﷺ، نساءه «من شدة موجدته عليهن» وفى تظاهرهما نزلت آيات التحريم.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل: من فضائل أصحاب الشجرة، أهل بيعة الرضوان، رضى الله عنهم. وابن سعد، بإسناده، فى غزوة الحديبية: الطبقات الكبرى: ٢/٧٣ ط ليدن - والآيتان من سورة مريم: ٧١، ٧٢.

وفى المتفق عليه من حديث عمر، رضى الله عنه، قال ابن عباس، رضى الله عنهما قال: «مكثت سنةً أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع هيبة له، حتى خرج حاجًّا فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة» الحديث بطوله[١].

وفى رواية لحديث ابن عباس عن عمر، متفق عليها كذلك، «أنه سأله: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبى ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ تتوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قلوبُكما..﴾؟ قال: عجبا لك يا ابن عباس: هما عائشة وحفصة» الحديث بطوله، وفيه قال عمر: فاعتزل النبى ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث، حين أفشته حفصة إلى عائشة...[٢].

وتعددت المرويات فى السر الذى نبأت به، وفى أسباب نزول آيات التحريم، وقد سبق حديث عائشة، المتفق عليه، فى نزول التحريم فى مكثه ﷺ عند زينب بنت جحش، تسقيه عسلاً يحبه، فتواطأت عائشة وحفصة، أيتهما دخل عليها ﷺ فلتقل: إنى أجد ريح مغافير، أكلت مغافير؟ أو كان التواطؤ على حفصة، بين عائشة وسودة وصفية.

وأسند الواقدى من عدة طرق، عن ابن عباس وعدد من الصحابة رضى الله عنهم، أن النبى ﷺ خلا بمارية فى بيت حفصة وكانت قد

(١-٢) اللؤلؤ والمرجان، ك الطلاق: الحديثان (٩٤٤، ٩٤٥).

خرجت، فجاءت ومارية معه، فبكتْ مقهورة فاسترضاها ﷺ بأن أسر إليها أن مارية عليه حرام، من يومئذ، على أن تكتم حفصة السر، فأنبأت به عائشة[١].

وفى رواية بصحيح البخارى، أنهن تظاهرن فى طلب التوسعة فىُ النفقة، وفى أخرى عن عمر رضى الله عنه قال: اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه، الحديث.

وقد خرج الحافظ ابن حجر حديث عمر، وغيره، فى التظاهر والتحريم من مختلف الطرق وقال: «والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل فإنه اجتمع فيه جماعة منهن... ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت، فأشير إلى أهمها»[٢].

وهذا الذى رجحه الحافظ ابن حجر، هو المتداول فى كتب الفقه، فى سبب نزول سورة التحريم[٣]. وهو المتداول أيضا فى كتب التفسير. وعليه اقتصر الواحدى فى «أسباب النزول» لسورة التحريم.

وفى حديث عن ابن عمر، رضى الله عنهما: أن عمر دخل على حفصة وهى تبكى، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك، إنه طلقك وراجعك من أجلى، والله لئن كان طلقك لا كلمتُك كلمة أبدا[٤].

وفى هذا الارتجاع مختلف الروايات، فمنها أن ذلك كان رحمةً بعمر

---

(١) الطبقات الكبرى: ١٨٦/٨ - ١٨٧.

(٢) فتح البارى: ٢٣٣/٩.

(٣) القاضى عياض فى شرح مسلم، على هامش ١١٠٠/٢.

(٤) رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد: ٢٤٤/٩) والإصابة، من طريق الطبرانى.

الذى حثا التراب على رأسه وقال: «ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها» فنزل جبريل عليه السلام من الغد وقال للنبى ﷺ: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، رحمة بعمر».

وفى رواية أخرى أن جبريل عليه السلام قال: «أرجع حفصة، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك فى الجنة»[١].

والراجح أن هذا الطلاق الرجعى، كان قبل تظاهرهما على النبى ﷺ، فلما اعتزل نساءه، كان من الطبيعى أن يكون إحساس حفصة بالذنب والندم، أقوى وأشد من إحساس الأخريات، فما كان لها وهى التقية العابدة، أن تفشى سرا ائتمنها عليه رسول الله ﷺ، ولا أن تقابل بذلك ترضيته لها بتحريم حلالٍ له.

وفى حديث عمر لابن عباس، رضى الله عنهما فى تظاهر عائشة وحفصة، ذكر أنه كان له جارٍ من الأنصار يتناوبان النزول على النبى ﷺ، فيخبر كل منهما صاحبه بما حدث فى نوبته. قال عمر: وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا. فنزل صاحبى الأنصارى يوم نوبته، فرجع إلينا عشاءً فضرب بابى ضربا شديدا وقال: أثَمَّ هو؟ ففزعت فخرجت إليه فقال: قد حدث اليوم أمر عظيم. قلت: ما هو؟ أجاء غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأهول: طلق النبى ﷺ نساءه. فقلت: خابت حفصة وخسرتْ، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علىَّ ثيابى فصليت صلاة الفجر مع النبى ﷺ فدخل ﷺ مشربة

---

(١) رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٢٤٤/٩) مع ترجمتها بالاستيعاب والإصابة.

له، فاعتزل فيها. ودخلت على حفصة فإذا هى تبكى، فقلت: ما يبكيك؟ ألم أكن حذرتك هذا؟ أطلقكن النبى ﷺ؟ قالت: لا أدرى، ها هو ذا معتزل فى المشربة. فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكى بعضهم، فجلست معهم قليلا ثم غلبنى ما أجد، فجئت المشربة التى فيها النبى ﷺ فقلت لغلام له - فى رواية مسلم: أنه رَبَاح -: استأذنْ لعمر، فدخل فكلم النبى ﷺ ثم رجع فقال: كلمت النبى ﷺ وذكرتُك له فصَمتَ. فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبنى ما أجد فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر. فدخل ثم رجع فقال: قد ذكرتُك له فصمت. فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبنى ما أجِدُ فجئتُ الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم رجع إلىَّ فقال: قد ذكرتك له فصمت. فلما ولَّيت منصرفًا، إذا الغلام يدعونى فقال: قد أذن لك النبى ﷺ. فدخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصيرٍ ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئا على وسادة من أدمٍ حشوها ليف. فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله، أطلقت نساءك؟ فرفع إلىَّ بصره فقال: «لا» فقلت: الله أكبر. ثم قلت وأنا قائم، أستأنس: يا رسول الله، لو رأيتنى، وكنا معشر قريش نَغلِبُ النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم؟ فتبسم النبى ﷺ. ثم قلت: يا رسول الله، لو رأيتنى، ودخلتُ على حفصة فقلت لها: لايغرنَّكِ أنْ كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبى ﷺ - يريد عائشة - فتبسم النبى ﷺ تبسمة أخرى فجلست حين رأيته تبسم...» الحديث.

ورُدَّت الروح إلى «عمر»، فاستأذن ونزل إلى المسجد.

فبشر المسلمين: «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ② وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ④ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ⑤

صدق الله العظيم (التحريم ١-٥)

الوديعة الغالية

وعت نساء النبى رضى الله عنهن هذا الدرس، وثابت «حفصة» إلى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما.

ولانعرف أنها من ذلك الحين، قد اشتركت فى مؤامرة نسوية ببيت النبى ﷺ أو تسببت له فيما يكره ما عاش، فلما انتقل ﷺ إلى جوار ربه الأعلى كانت «حفصة» هى التى اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا - وفيهن عائشة - لتحفظ النسخة الأولى للمصحف الشريف.

ذلك أن «عمر» لما استحرَّ القتل بالصحابة فى حروب الردة يوم اليمامة، أشار على «أبى بكر» الخليفة الأول، أن يبادر فيجمع القرآن الكريم من صحفه المتفرقة، قبل أن يبعد العهد بنزوله، ويمضى حفظته الأولون، وقد استشهد منهم مئات فى حروب الردة.

فاستجاب «أبوبكر» وجمع المصحف الشريف فكانت صحفه عند أبى بكر حتى توفى، ثم عند عمر حتى قُبض، فأوصى إلى حفصة فكان المصحف عندها[1]. رضى الله عنهم جميعا.

* * *

فى أواخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة للهجرة، توفى

---

(١) الزركشى: البرهان فى علوم القرآن (٢٣٤/١ ط القاهرة) من طريق البخارى. مع صحيح البخارى: ك الفضائل. وطبقات ابن سعد (٨٤/٨).

أبو بكر الصديق، أول الخلفاء الراشدين. وتولى الخلافة من بعده، بعهد منه، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وشهدت حفصة أمجاد أبيها ومآثره، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده...

إلى أن روعت وروع المسلمون كافة، بالمقتل الفاجع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، بطعنات من خنجر أبى لؤلؤة المجوسى، فى ليالى المحاق من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة.

وترك أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى من كبار الصحابة، فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وفى عهده تم توحيد حرف المصحف ورسمه، من المصحف المجموع المودع لدى أم المؤمنين حفصة. ونُسِخَت من المصحف العثمانى الإمام، نُسخ وُزِّعت على الأمصار.

* * *

بعد مقتل ذى النورين عثمان رضى الله عنه، فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، بويع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه. وكانت الفتنة الكبرى التى خرجت فيها السيدة عائشة مع الذين كرهوا البيعة، وحاربت معهم يوم الجمل. وقد عزمت على السيدة حفصة فى الخروج معها، فهمَّتْ بأن تستجيب لها، كالعهد بها فيما مضى. لولا أن ردّها أخوها: «عبدالله بن عمر» عن الخروج فى تلك الفتنة.

* * *

وأقامت بالمدينة عاكفة على العبادة قوامة صوامة، إلى أن توفيت فى عهد معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية. وشيعتها المدينة إلى

مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن[١].

وبقى لها مع ذكراها أمًّا للمؤمنين حافظة للمصحف الشريف، ما روت من الحديث عن النبى ﷺ، وعن أبيها عمر رضى الله عنهما. روى عنها أخوها عبد الله رضى الله عنه وابنه حمزة، فى عدد من حفاظ التابعين...

* * *

(١) فى سنة وفاتها خلاف، والراجح أنها توفيت سنة سبع وأربعين. انظرها فى الطبقات الكبرى، والمحبر٨٣، والاستيعاب والإصابة، وفى عيون الأثر (٣٠٢/٢). وتهذيب التهذيب ٤١٠/١٢.

(٥)

زينب بنتُ خُـزَيْمة
أمّ المسَاكِين

«وكانت تسمى أمَّ المساكين
لرحمتها إياهم ورقتها عليهم»
ابن إسحاق: فى السيرة النبوية

لم يكن قد مضى على دخول «حفصة» البيت المحمدى غير وقت قصير، حين دخلته أرملة شهيد قرشى من المهاجرين الأولين، خامسة أمهات المؤمنين: «زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، الهلالية».

ويبدو أن قصر مقامها ببيت النبى ﷺ، قد صرف عنها كتّاب السيرة ومؤرخى عصر المبعث، فلم يصل إلينا من أخبارها سوى بضع روايات لا تسلم من تناقض واختلاف.

لم يختلفوا فى نسبها من جهة أبيها، كما صرح أبو عمر ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب، بعد سياق نسبها. وهو ما أجمعت عليه مصادرنا لترجمتها أو نسبها[1].

وأما من جهة أمها، فأغفلته جمهرة هذه المصادر. ونقل ابن عبد البر فيها قول أبى الحسن الجرجانى على بن عبد العزيز النسابة: «وكانت زينب بنت خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث - أم المؤمنين - لأمها» قال ابن عبد البر: «ولم أر ذلك لغيره، والله أعلم». وحكاه ابن سيد الناس عن ابن عبد البر، ولم يعقب عليه.

قلت: بل ذكره كذلك، النسابة «أبو جعفر بن حبيب» فى مبحث (أسلاف رسول الله ﷺ) من قِبَل ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية. أمها: «هند* بنت عوف بن الحارث بن حماطة، الحميرية» وأخوات

(١) الطبقات الكبرى، ونساء الاستيعاب والإصابة. والسيرة الهشامية ٢٩٧/٤، وتاريخ الطبرى ١٧٩/٣، والمحبر لابن حبيب ٨٣، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٢، وعيون الأثر ٣٠٢/٢، والسمط ١١٢.

ميمونة لأبيها وأمها: أم الفضل لبابة الكبرى أم بنى العباس بن عبد المطلب، ولبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وعزة بنت الحارث... وأختهن لأمهن: زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية. وأسماء بنت عميس زوج الشهيد الطيار جعفر بن أبى طالب، خلف عليها أبو بكر الصديق ثم على بن أبى طالب، وسلامة بنت عميس زوج عبد الله بن كعب...

قال:«ولا يُعلم امرأة فى العرب كانت أشرف أصهارًا من هند بنت عوف، أم ميمونة وأخواتها»[١].

واختلفوا فيمن كانت عنده قبل النبى ﷺ، والراجح - والله أعلم - أنها كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، فخلفه عليها أخوه عبيد بن الحارث، استشهد رضى الله عنه فى بدر، فخلفه عليها النبى ﷺ.

وهى رواية ابن حبيب فى المحبر، وابن سعد من طريق الواقدى والجرجانى النسابة - حكاه ابن عبد البر - وابن سيد الناس فى عيون الأثر، والمحب الطبرى فى السمط، وأحد الأقوال فى ترجمتها بالاستيعاب والإصابة.

وقيل: كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد مناف فطلقها، فخلف عليها النبى ﷺ. حكاه الطبرى وابن عبد البر عن قتادة. والواقدى عن الزهرى.

وفى السيرة الهشامية قال ابن إسحاق: إنها كانت عند عبيدة

(١) المحبر: ١٠٥ - ١٠٩ ومعه الإصابة: ٩٥/٨.

ابن الحارث بن عبد المطلب، وكانت قبله عند جهم بن عمرو بن الحارث الهلالى، وهو ابن عمها.

وفى قول رابع: إنها كانت عند عبد الله بن جحش فاستشهد فى أحد، فخلف عليها النبى ﷺ. حكاه ابن عبد البر - عن الزهرى - وابن حجر فى (الإصابة).

وعن «ابن الكلبى»: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فخلفه عليها أخوه فقتل عنها ببدر، فخطبها رسول الله ﷺ.

وفى الطبرى:

«وفى هذه السنة - الرابعة - تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بنى هلال، فى شهر رمضان... وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها».

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من النبى ﷺ.

فى الإصابة عن «ابن الكلبى» أن رسول الله ﷺ خطبها إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها...

وفى السيرة، رواية ابن هشام:

«زوَّجه إياها عمها: قبيصة بن عمرو الهلالى، وأصدقها ﷺ أربعمائة درهم».

واختلفوا رابعة فى المدة التى أقامتها ببيت النبى عليه الصلاة والسلام:

ففى الإصابة رواية تقول: «كان دخوله ﷺ بها، بعد دخوله على

حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت».

ورواية أخرى عن ابن الكلبى:

«فتزوجها فى شهر رمضان سنة ثلاث فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت فى ربيع الآخر سنة أربع»

وفى (العبر) قال الذهبى:

«وفيها - يعنى السنة الثالثة - دخل بزينب بنت خزيمة العامرية، أم المساكين، فعاشت عنده ثلاثة أشهر وتوفيت».

وكذلك اضطربت فيها نقول المحدَثين: ذكرها الدكتور هيكل باسم «زينب بنت مخزوم» فى قضية زواج زينب بنت جحش. وجزم بأنها «قد كانت زوجًا لعبيد بن المطلب الذى استشهد يوم بدر، فلم تلبث إلا سنة أو سنتين» (؟!) كما جزم بأنها «لم تكن ذات جمال»[١].

ومبلغ علمى أنه ما من مصدر مما وقفت عليه، تعلق بوصف شكلها وصورتها.

وقال بودلى: «... تبع زواج محمد من حفصة زواجٌ آخر، وكان زواجًا شكليًّا أكثر من أى شىء آخر. كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث، ابن عم لمحمد سقط فى بدر، وكان اسمها زينب بنت خزيمة وما ضمها محمد إلى نسائه إلا بدافع الشفقة، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدًا، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر»[٢].

---

(١) حياة محمد: ٢٨٨؛ ٢٩١.

(٢) الرسول: ١٧٦ من الترجمة العربية.

قلت: لم يطل بها المقام فى بيت النبى ﷺ، ليقال إن زواجها كان شكليًّا بدافع الشفقة.

* * *

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتّاب السيرة فى أمر زينب بنت خزيمة، فقد أجمعوا على وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء، ولا يكاد اسمها يذكر فى أى كتاب مما ذكرنا إلا مقرونًا بلقبها الكريم: أم المساكين.

فى السيرة الهشامية:

«وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم»[١]

وعن الزهرى، قال: تزوج النبى ﷺ زينب بنت خزيمة، وهى أم المساكين. سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين. وهى من بنى عامر ابن صعصعة»[٢].

وفى الاستيعاب والإصابة:

«وكان يقال لها أم المساكين. لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم». ومثله فى تاريخ الطبرى[٣].

* * *

وأحتاج إلى أن أشير هنا إلى مقال كتبه فضيلة الأستاذ «الشيخ محمد

---

(١)السيرة: ٢٩٦/٤.

(٢) رواه الطبرانى، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد: ٢٤٨/٩).

(٣) ٣٣/٣.

المدنى» فى مجلة الرسالة - عدد ١١٠٣ تاريخ ٩٦٥/٣/٤ - قال ما نصه:

«وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها هى أجودهن - يعنى أزواج النبى - وأبرهن باليتامى والمساكين... حتى كانت تعرف بأم المساكين».

قلت: مصادرنا للسيرة وطبقات الصحابة وكتب التاريخ، والأنساب تجمع على أن لقب أم المساكين إنما كان للسيدة «زينب بنت خزيمة».

فلعل الوهم جاء من قول ابن الأثير فى ترجمتها بأسد الغابة: ذكر ابن منده فى ترجمتها حديث «أَوَّلُكنّ لحوقا بى أطولُكُنَّ يدًا» وقد تقدم فى ترجمة زينب بنت جحش، وهو بها أليق لأن المراد بلحوقهن موتُهن بعده، ﷺ، وهذه، أى زينب بنت خزيمة، ماتت فى حياته.

نقله الحافظ ابن حجر فى الإصابة، وقال: وهو تعقب قوى.

ويأتى حديث «أطولهن يدًا» فى ترجمة أم المؤمنين زينب بنت جحش، رضى الله عنها.

* * *

والراجح أنها ماتت فى الثلاثين من عمرها كما ذكر «الواقدى» ونقله «ابن حجر» فى الإصابة، ولم أقف على خبر عنها فى حياتها الزوجية القصيرة، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبى ﷺ وأمومة المؤمنين، منصرفة عن شواغل الحريم، بما كان يشغلها من أمر المساكين، قانعة بحظها من تقدير النبى ﷺ، والمؤمنين، لا يرهقها طمع ولا تنهكها غيرة...

ورقدت فى سلام، كما عاشت فى سلام. وصلى عليها النبى ﷺ، ودفنها بالبقيع فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

ولم يمت منهن فى حياته ﷺ، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى - ومدفنها بالحجون فى مكة - والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية، أم المؤمنين والمساكين.

* * *

(٦)
أمّ سَلَمَةَ
بنتُ زادِ الرّكْبِ

«قالت أم سلمة: عجبًا لك يا ابن الخطاب، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه! قال عمر: فأخذتنى، والله، أخذًا كسرتنى به عما كنت أجد...»

من حديث ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم
(متفق عليه)

العِزّة والجمَال

خلا بيت «أم المساكين» فى دور النبى ﷺ وقتًا غير قصير، ثم جاءت «أم سلمة» فشغلته.

اسمها: هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: القرشية المخزومية[1].

قالت، فيما روى ابن سعد فى (طبقاته) من طريق الواقدى بسنده إليها:

«... فتزوجنى رسول الله ﷺ فنقلنى فأدخلنى بيت زينب بنت خزيمة، أم المساكين».

إنها ضرة جديدة عزيزة، عريق المنبت، ذات جمال وإباء وفطنة، تزفها إلى بيت النبى ﷺ أمجاد طوال عراض.

أبوها: أحد وجوه قريش المعدودين، وأجوادهم المشهورين، وقد ذهب على الدهر بلقب «زاد الركب» أنْ كان إذا سافر لا يترك أحدًا يرافقه ومعه زاد، بل يكفى رفقته من الزاد.

وأمها: عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة

---

(١) السيرة ١/٣٤٥، ٤/٢٩٤، طبقات ابن سعد ٨/٩٢، تاريخ الطبرى ٣/١٧٧، ونسب قريش ٢١٦، المحبر ٨٣، الاستيعاب ٤/١٩٣٩، السمط الثمين (٨٦)، الإصابة ٨/٢٤٠، عيون الأثر (٢/٨٦).

الكنانية، من بنى فراس الأمجاد. وكان جدها علقمة، يلقب بجذل الطعان

وزوجها الذى مات عنها: عبد الله بن عبد الأسد بن هلال ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم، الصحابى ذو الهجرتين، ابن عمة المصطفى: برة بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخوه ﷺ، من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة، مولاة أبى لهب، كما فى الحديث المتفق عليه عن أم حبيبة رضى الله عنها، أنها عرضت أختها على رسول الله ﷺ، لما بلغها أنه خطب بنت أم سلمة فقال: «لو لم تكن ربيبتى ما حلّت لى، أرضعتنى وأباها ثويبة»[١].

وكان لأبى سلمة، ولزوجه هند، إلى جانب النسب العريق، مكانتهما فى الإسلام، فقد كانا من بين السابقين الأولين، وهاجرا مع العشرة الأولين إلى الحبشة، حيث ولدت هند هناك ابنها «سلمة»[٢].

ثم قدما مكة، بعد تمزيق صحيفة المقاطعة، وقد ضرى اضطهاد قريش للمسلمين. فلما أذِنَ النبى ﷺ لأصحابه فى الهجرة إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى، أجمع «أبو سلمة» أمره على الهجرة بأهله، فكانت قصة خروجهما مأساة ما تزال - على بعد العهد بها وتطاول الآماد - مثيرة أليمة الوقع.

حدثت «أم سلمة» رضى الله عنها، قالت:[٣]

---

(١) السيرة: ١٠٢/٣، والاستيعاب (٦٣٩ - ١٦٨٢) وانظر: جمهرة أنساب العرب: ١٣٤ ونسب قريش (٣٣٧). مع حديث أم حبيبة رضى الله عنها، فى ك الرضاعة باب تحريم الربيبة وأخت المرأة (اللؤلؤ ح ٩٢٠).

(٢) السيرة ٣٤٥/١.

(٣) ابن إسحاق: السيرة ١١٢/٢ والنقل منها، والسمط الثمين ٨٧، مع ترجمتها فى الاستيعاب والإصابة من طريق ابن إسحاق.

«... لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل بعيرًا له وحملنى وحمل معى ابنى سلمة، ثم خرج يقود بعيره، فلما رآه رجال قومى بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها فى البلاد؟

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذونى، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، وأهووا إلى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجى:

- والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به رهط أبيه، وحبسنى بنو المغيرة عندهم.

ومضى زوجى أبو سلمة حتى لحق بالمدينة. وفُرِّق بينى وبين زوجى وابنى، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطحُ، فما أزال أبكى حتى أمسى، سنةً أو قريبًا منها.

حتى مر بى رجل من بنى عمى، أحد بنى المغيرة، فرأى ما بى، فرحمنى فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها.

وما زال بهم حتى قالوا:

- الحقى بزوجك إن شئت.

وردَّ علىَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابنى، فرحلت بعيرى، ووضعت ابنى فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى أحد من خلق الله...

حتى إذا كنت بالتنعيم - على فرسخين من مكة - لقيت عثمان ابن طلحة[١] فقال: أين يا بنت أبى أمية؟

قلت: أريد زوجى بالمدينة.

فقال: هل معك أحد؟

فقلت: لا والله، إلا الله وابنى هذا.

فقال: والله مالك من مَتْرَك.

وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه. إذا نزل المنزل أناخ بى ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه ورجله، ثم استأخر عنى وقال: اركبى. فإذا ركبت واستويت على بعيرى، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بى. فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء - وكان بها منزل أبى سلمة فى مهاجَره - قال: إن زوجك فى هذه القرية، فادخليها على بركة الله.

ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة، كما كانت من المهاجرين الأولين إلى الحبشة.

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد. فلما فتحت مكة ، دفع النبى ﷺ مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة ابن عثمان بن أبى طلحة، وقتل عثمان شهيدًا بأجنادين فى خلافة عمر رضى الله عنهما، وانظر ترجمته فى الطبقات. والإصابة، والاستيعاب.

وكذلك كان زوجها أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، أول من هاجر إلى يثرب من أصحاب رسول الله ﷺ[١].

وفى المدينة، عكفت على تربية صغارها، وتفرغ زوجها للجهاد.

ولما خرج ﷺ فى غزوة ذى العشيرة - فى جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، وهى الغزوة التى وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم بن ضمرة - اختار من بين أصحابه أبا سلمة، فاستعمله على المدينة[٢].

وشهد غزوة «بدر» الكبرى، فكان أحد ثلثمائة وأربعة عشر رجلًا، تمَّ بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين، فى أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد... ثم شهد يوم أحد، وأبلى فيه بلاء مشهودًا. ورُمى بسهم فى عضده مكث يداويه حتى ظن أنه التأم.

فلما أزجف المرجفون بالإسلام بعد «أُحُد» وبلغ النبى ﷺ بعد شهرين اثنين من الموقعة، أن بنى أسد يدعون إلى مهاجمته فى دار هجرته، دعا إليه «أبا سلمة» فعقد له لواء سرية إلى قطن، وهو جبل بناحية فيد - ماء لبنى أسد بن خزيمة - ومعه مائة وخمسون رجلًا، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص...

ونفذ «أبو سلمة» ما أمر به النبى ﷺ من أخذ العدو على غِرة، فأحاط بهم فى عماية الصبح على غير أهبة منهم لقتال، وقاد معركة ظافرة، ثم رجع وصحبه إلى المدينة سالمين غانمين، قد أعادوا بعض ما ضيعت «أحد» من هيبة المسلمين[٣].

(١) السيرة ١/١١٢-١١٣ وطبقات ابن سعد ٨/٨٧، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ١/١١٥. مع (فتح البارى ٧/١٧٦).

(٢) طبقات ابن سعد ٢/٤ ط ليدن والسيرة ٢/٢٤٨، وعيون الأثر ١/٢٢٦.

(٣) طبقات ابن سعد ٢/٣٥، عيون الأثر ٢/٣٨.

فى هذه السرية، انتكأ الجرح الذى أصاب أبا سلمة يوم أحد، فظل به حتى مات منه، لثمانٍ خلون من جمادى الآخرة سنة أربع.

وحضره النبى ﷺ وهو على فراش موته، وبقى إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات، فأسبل بيده الكريمة عينيه، وكبر عليه تسع تكبيرات.

قيل له: يارسول الله، أسهوت أم نسيت؟ فقال:

«لم أسه ولم أنس، ولو كبَّرتُ على أبى سلمة ألفًا، كان أهلًا لذاك»[١].

فى صحيح الحديث عن أم سلمة أن أبا سلمة، رضى الله عنهما حدثها أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمره الله به من قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجِرْنى فى مصيبتى وعوضنى خيرًا منها) إلا آجره الله فى مصيبته وكان قمينا أن يعوضه خيرًا منها» فلما هلك أبو سلمة ذكرتُ الذى حدثنى به عن رسول الله ﷺ فكنت أقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيرًا منها) ثم قلت: أنَّى أُعاضُ خيرًا من أبى سلمة؟ وأنا أرجو أن يكون الله قد آجرنى فى مصيبتى»[٢].

وأسند ابن سعد عنها أن أبا سلمة دعا لها قبل موته: «اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلًا خيرًا منى، لا يحزنها ولا يؤذيها. فلما مات أبو سلمة قلت: من هذا الذى هو خير من أبى سلمة؟ وذكر الخطبة»[٣].

قال ابن عبد البر: إن أبا سلمة قال عند وفاته: «اللهم اخلفنى فى

---

(١) تاريخ الطبرى: ١٧٧/٢، الإصابة: ٢٤٠/٨.

(٢) صحيح مسلم، ك الجنائز. وابن سعد بسنده إليها فى (الطبقات ٨٨/٨).

(٣) الطبقات الكبرى: ٨٨/٨.

أهلى بخير» فأخلفه رسول الله ﷺ على زوجته أم سلمة فصارت أمًّا للمؤمنين، وعلى بنيه: سلمة وعمر وزينب ودرّة»[١].

* * *

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة «أم سلمة» فتقدم إليها منهم «أبو بكر الصديق» خاطبا، فردَّتْه فى رفق.

وتلاه «عمر بن الخطاب» فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه.

ومن بعدهما، بعث إليها النبى ﷺ يخطبها، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم، لكنها أشفقت - وقد جاوزت سن الشباب، ومعها عيال لها صغار - ألا تملأ مكانها فى بيت النبى، إلى جانب عائشة وحفصة.

وأرسلت إلى النبى ﷺ تعتذر، وتقول: إنها غيرى، مُسِنَّة... ذات عيال... فقال عليه الصلاة والسلام:

«أما أنك مسنة، فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأما العيال فإلى الله ورسوله»[٢].

* * *

وتم الزواج فى شهره المبارك «من السنة الرابعة على الصحيح»[٣].

تقول «أم سلمة» وذكرت إدخالها بيتَ زينب بنت خزيمة بعد وفاتها: «... فإذا جَرَّة هناك، فاطَّلعتُ فإذا فيها شىء من شعير، وإذا رَحى وبرمة وقِدْر نظرت فإذا فيها كعب من إهالة - شحم - فأخذت ذلك

(١) الاستيعاب: ترجمة أبى سلمة المخزومى، عبد الله بن عبدالأسد رضى الله عنه.

(٢) السمط الثمين: ٨٩، والمحبر ٨٥، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ٢/٣٠٤.

(٣) الإصابة وعيون الأثر، خلافا لما ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب «سنة اثنتين» ولا يصح.

الشعير فطحنتُه ثم عصدته فى البرمة، وأخذت الكعب من الإهالة فأدمته به، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه»[١].

وتكلفت «عائشة وحفصة» ما أطاقتا من شجاعة، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشىء من المجاملة، لكن «عائشة» لم تطق صبرا على هذا التكلف، فكشفت لحفصة عما تطوى من غيظٍ وغيرة. فى (طبقات ابن سعد) عن الواقدى، حديث عائشة رضى الله عنها: «لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، حزنت حزنًا شديدًا لما ذكر من جمالها. فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وُصِفَتْ به، فذكرت ذلك لحفصة - وكانتا يدًا واحدة - فقالت: لا والله، إن هى إلا الغيرة، ما هى كما يقولون ... وذكرتْ كبر سنها... فرأيتها بعد ذلك فكانت لعمرى كما قالت حفصة، ولكنى كنت غيرَى»[٢].

وغير مستبعد أن تكون أن «أم سلمة» قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة ومن معها، أسند الواقدى من حديث الزهرى عن هند بنت الحارث الفراسية قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن لعائشة منى شعبة ما نزلها منى أحد» فلما تزوج أم سلمة سئل: يارسول الله، ما فعلت الشعبة؟ فسكت: فعُرِف أن أم سلمة نزلت عنده[٣].

ولعلها - لذلك - رضيت أن تبعث بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة، كى تفرغ لواجباتها الزوجية[٤].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٩٢/٨.
(٢) طبقات ابن سعد: ٩٤/٨، والإصابة من طريقه.
(٣) طبقات ابن سعد ٩٤/٨٠ والإصابة من طريقه.
(٤) السيرة ١٧١/٢، والسمط ٩٠، والإصابة.

وفى الصحيحين من حديث أم سلمة رضى الله عنها، قالت:[١]

قلت: يا رسول الله، هل لى من أجر فى بنى أبى سلمة أن أنفق عليهم؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنىَّ. قال: «نعم، لكِ أجرُ ما أنفقتِ عليهم».

وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: دخل علىَّ يوما رسول الله ﷺ فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: «يا حميراء، كنت عند أمِ سلمة» فقلت: أما تشبع من أم سلمة؟ فتبسم[٢].

وبدا واضحا أن «أم سلمة» تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على «عائشة» أو سواها المساس بكرامتها، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب.

وكذلك أبت على «عمر» رضى الله عنها أن يتكلم فى مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن المصطفى ﷺ.

فى (الصحيحين) من حديث عبدالله بن عباس رضى الله عنهما، عن عمر رضى الله عنه، قال: «والله إنْ كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسَم لهن ما قسم. فبينا أنا فى أمرٍ أتأمره إذ قالت امرأتى: لو صنعتَ كذا وكذا؟ فقلت لها: مالَكِ ولما هٰهنا، فيم تكلفك فى أمرٍ أريده؟ فقالت لى: عجبا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجَع وإن ابنتك لَتُراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟».

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها:

---

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان: ١/٢٣٤ ح (٥٨٥).

(٢) الطبقات الكبرى: ٨/٨٠.

«يا بنية، إنك لَتُراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلتُ: تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ. يا بنية، لا يغرَّنْكِ هذه التى أعجبها حسنُها وحبُّ رسول الله ﷺ إياها - يريد عائشة: قال: ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة، لقرابتى منها، فكلمتها، فقالت أم سلمة:

«عجبا لك يا ابن الخطاب! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟»

قال عمر: «فأخذتنى، والله، أخذاً كسرتْنى به عن بعض ما كنت أجِدُ، فخرجت من عندها» الحديث، بطوله[1].

وما قالت كلمتها هذه إلا وهى مدلة بمكانها عند النبى ﷺ وفى بيته، فقد كان ﷺ يعدها من أهله: حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضى الله عنهم، فضمهما إليه، ثم قال: (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد.) فبكت «أم سلمة» فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها فى حنو: ما يبكيك؟... أجابت: يا رسول الله خصصتهم، وتركتنى وابنتى. قال: إنك وابنتك من أهل البيت[2].

وقد شبت زينب فى رعاية النبى ﷺ، فكانت من أفقه نساء أهل زمانها، ويروى أنها «دخلت على النبى ﷺ وهو يغتسل فنضح فى وجهها،

---

(١) متفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى الإيلاء ومَن تظاهرنا عليه ﷺ من نسائه. (اللؤلؤ ٢/٨٣٠ حديث ٩٤٤).

(٢) السمط الثمين: ٢٠.

فلم يزل ماء الشباب فى وجهها حتى كبرت وعجزت»[١].

وبلغ من إعزازه ﷺ ربيبه «سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد» أنْ زوّجه «أمامةَ بنت حمزة بن عبدالمطلب» عمه الشهيد رضى الله عنه.

«ويقول أهل العلم بالنسب، إن سلمة هو الذى عقد للنبى ﷺ، على أُمِّه أم سلمة. فلما زوجه أمامة بنت حمزة بن عبدالمطلب أقبل ﷺ على أصحابه فقال: ترون كافأته؟»[٢].

وكذلك شب أخوه عمر وأخته دُرَّة، فى كفالة النبى ﷺ ورعايته، فكانا مع سلمة وزينب، من ربائبه وأهل بيته رضوان الله عليهم.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر وابن حجر فى ترجمة «زينب» بالاستيعاب والإصابة.

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى ترجمة «سلمة» بالاستيعاب. وانظر فى طبقات الصحابة: عمر بن أبى سلمة، ودرة بنت أبى سلمة، ربيبى النبى ﷺ.

وحيٌ... ومشورَة

كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ فى بيت «عائشة» فتباهى بذلك ضرائرها، حتى جاءت «أم سلمة بنت زاد الركب» فكان مما أوحى إليه وهو عندها قوله تعالى، فى سورة التوبة:

﴿وآخَرونَ اعترفوا بذنوبِهم خَلَطوا عَمَلًا صَالِحًا وآخَر سَيِّئًا، عسَى الله أن يتوبَ عليهم إن الله غفورٌ رحيم﴾ - ١٠٢.

وفى سبب نزول الآية يروون أن النبى ﷺ، لما غزا بنى قريظة فى السنة الخامسة للهجرة، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار، قذف الله فى قلوبهم الرعب فبعثوا إلى رسول الله أن يرسل إليهم صاحبه «أبا لبابة ابن عبد المنذر الأنصارى» ليستشيروه فى أمرهم. فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرقَّ لهم.

وسألوه: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

فأجاب: «نعم، إنه الذبح». وأشار بيده إلى حلقه.

فمازالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله.

وانطلق على وجهه، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد، وقال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت.

وعاهد الله على: «أن لا أطأ بنى قريظة أبدا، ولا آوى فى بلدٍ خُنتُ الله ورسوله فيه أبدًا».

قال ابن هشام:

«... أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته فى كلِّ وقتِ صلاةٍ فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع...»

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: «أما أنه لو جاءنى لاستغفرتُ له. فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» ثم روى ابن إسحاق بسنده، أن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو فى بيت أم سلمة، فقالت، وقد سمعتْه يضحك، قلتُ:

مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟

قال: «تيبَ على أبى لبابة».

قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟

فقال: «بلى، إن شئتِ»

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

فثار الناس ليطلقوه، فأبى وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده.

فلما مر رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه[1].

* * *

(١) السيرة ٣/٣٤٦ - والنقل منها - وتاريخ الطبرى، السنة الخامسة من الهجرة ٣/٥٤، مع ترجمة أبى لبابة بن عبد المنذر فى الكُنى من الاستيعاب. ومن الإصابة.

وفى تفسير البخارى لسورة التوبة من حديث كعب بن مالك الأنصارى - أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا وتيب عليهم، رضى الله عنهم - قال: فأنزل الله من توبتنا على نبيه ﷺ حين بقى الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى معنية فى أمرى، فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سلمة، تِيب على كعب» قلت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ الحديث بطوله[١].

فى (الصحيحين) من فضائلها رضى الله عنها، حديث أسامة بن زيد، رضى الله عنهما «أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يحدث ثم قام...» الحديث، بطوله[٢].

* * *

فى العام السادس للهجرة، صحبت «أم سلمة» النبى ﷺ فى رحلته إلى «مكة» معتمرا، وهى الرحلة التى صدت فيها قريش «محمدا» وأتباعه عن دخول البلد الحرام، وتم عهد الحديبية.

وكان «لأم سلمة» رضى الله عنها يومئذ دور جليل مذكور فى تاريخ الإسلام.

ذلك أن الصحابة دخل عليهم أمر عظيم حين عرفوا شروط العهد، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون. ويكفى أن نذكر من ذلك أنه لما التأم الأمر بالاتفاق على شروط الصلح، ولم يبق إلا

---

(١) صحيح البخارى: ك التفسير، سورة التوبة. مع (فتح البارى ٨/٢٣٨).

(٢) متفق عليه من حديث أسامة رضى الله عنه (اللؤلؤ والمرجان، من فضائل أم سلمة رضى الله عنها: ح ١٥٩٤).

كتابته والإشهاد عليه، جاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: «بلى». فقال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال: «بلى». قال: فعَلامَ نُعطِى الدنِيَّةَ فى ديننا؟ أنرجع ولَـمَّا يحكمِ الله بيننا وبينهم؟ فقال: «ابنَ الخطاب، إنـى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا» فانطلق عمر إلى أبى بكر فقال له مثل ما قال للنبى ﷺ، فقال: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا. فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ، على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يارسول الله، أَوَ فتح هو؟ قال: «نعم»[١].

فى حديث معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم، رضى الله عنهم، فى قضية الحديبية: أنه: (لما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته، قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» فما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على زوجه «أم سلمة» فذكر لها ما لقى من الناس فقالت: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بَدنتك وتدعو حالقك فيحلقك. فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى فعل ذلك: نحرَ بَدنته ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا)[٢].

---

(١) متفق عليه من حديث أبى وائل الكوفى عن سهل بن حنيف رضى الله عنه. والنقل من (اللؤلؤ والمرجان، باب صلح الحديبية ح: ١١٦٨).

ورواه ابن إسحاق من حديث الزهرى، بإسناده، فى السيرة (٣٣١/٣) بتقديم وتأخير. واليعمرى فى عيون الأثر (١١٩/٢) من طريق ابن إسحاق.

(٢) تاريخ الطبرى، حوادث السنة السادسة (٨٠/٣).

ورواه السهيلى بلفظ مقارب: «من غير طريق ابن إسحاق، فى الصحيح»[١].

قال الحافظ ابن حجر فى ترجمتها بالإصابة: «وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب. وإشارتها على النبى صلى الله عليه وآله وسلم، يوم الحديبية، تدل على وفور عقلها وصواب رأيها».

وثاب المسلمون إلى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم، فأدركوا أى صلح خطير عقد النبى عليه الصلاة والسلام، وأنه ما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، فلقد دخل فى دين الله بعد الحديبية، مثل من كان قبل ذلك وأكثر.

فكان عمر رضى الله عنه يقول:«ما زلتُ أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق، مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرا»[٢].

* * *

وكذلك صحبت «أم سلمة» النبى ﷺ فى غزوة خيبر، وفى فتح مكة، وفى حصاره الطائف،وغزو هوزان وثقيف، ثم فى حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة.

ولا أعلم أنها ظاهرت السيدة عائشة على نساء النبى ﷺ، إلا ما كان من غيرتها من «مارية القبطية» حين حملت من سيد البشر،

---

(١) الروض الأنف، الحديبية: ٣٧/٤.

(٢) ابن إسحاق عن الزهرى، فى أمر الهدنة بالسيرة (٣٣١/٣).

ولم تحمل منه أم سلمة وهى التى ولدت لابن عمته البنين والبنات.

فلما لطف الله بها، وبسائر أمهات المؤمنين بعد محنة اعتزال النبى ﷺ إياهن، ساد الهدوء الجو العام للبيت المحمدى. إلى أن مرض عليه الصلاة والسلام، واستبطأ يوم عائشة، فسمحت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين؛ عن طيب خاطر، بأن يُمرض حيث أحبَّ، فى بيت عائشة.

* * *

الله مِن وَرَاءِ هَذِه الأمّة

ثم حاولتْ من بعده، ﷺ، أن تتجنب الخوض فى الحياة العامة، إلى أن كانت الفتنة الكبرى فآزرت أمير المؤمنين الإمام عليًّا، ابن عم النبى صلى الله عليه وعلى آله، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسين. رضى الله عنهم.

وودت لو تخرج فتنصره، لكنها كرهت أن تبتلى وهى أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج، فجاءت «عليا» كرم الله وجهه وقدمت إليه ابنها عمر قائلة:

«يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصى الله عز وجل، وأنك لا تقبله منى، لخرجتُ معك. وهذا ابنى عُمر، والله لهو أعز على من نفسى، يخرج معك فيشهد مشاهدك»[1].

ثم مضت إلى «عائشة» فقالت لها:

- أى خروج هذا الذى تخرجين؟... الله من وراء هذه الأمة!..

* * *

لكن «عائشة» مضت فى طريقها...

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتُحنت، كما امتحن الإسلام وأمته، بمذبحة «كربلاء» ومصارع الإمام الحسين وآل البيت، على الساحة المشئومة.

---

(١) شهد عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما يوم الجمل مع الإمام على، كرم الله وجهه واستعمله على فارس والبحرين (الاستيعاب والإصابة).

«توفيت رضى الله عنها بعد ما جاءها نعى الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما» على ما صح عند الحافظ ابن حجر، وحكاه فى ترجمتها بالإصابة وتهذيب التهذيب عن أبى بكر بن أبى خيثمة وابن حبان. وحكاه القاضى عياض عن ابن أبى خيثمة وابن عبد البر. وهو أيضًا ما أثبته ابن حبيب. خلافا لقول الواقدى بوفاتها سنة تسع وخمسين[١] وردَّه الحافظ ابن حجر، فى الإصابة.

وصلى عليها «أبو هريرة» رضى الله عنه وشيع المسلمون إلى البقيع، أم سلمة بنت زاد الركب، آخر من مات من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

* * *

حديثها عن النبى ﷺ فى الكتب الستة. وفيها كذلك ما روَى ابنها عمر وبنتها زينب، ربيبا النبى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم[٢].

كما روى عنها مكاتبها نبهان، وأخوها عامر بن أبى أمية المخزومى، وابنُ أخيها مصعب بن عبدالله بن أبى أمية... وخيْرة أم الحسن البصرى، وسليمان بن يسار، وأسامة بن زيد، وهند بنت الحارث الفراسية، وصفية بنت شيبة، وأبو عثمان النهدى وحميد الطويل، وعروة ابن الزبير، وكريب مولى عبدالله بن عباس، فى كثرة من التابعين..

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد: ٩٦/٨ ومعه الإصابة، وتهذيب التهذيب (٤٥٦/١٢ : هند بنت أبى أمية المخزومية) وصحيح مسلم هامش (٢٢٠٨/٤) مقابلا على الاستيعاب ١٩٢٨/٤.

(٢) تراجم: هند بنت أبى أمية، وعمر وسلمة ابنا أبى سلمة، وزينب بنت أبى سلمة، رضى الله عنهم فى الإصابة. وطبقات ابن سعد.

(٧)

زينب بنتُ جَحْشٍ

أكرمُهُنَّ وَلِيًّا وسَفِيرًا

قال تعالى:

فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

(سورة الأحزاب: ٣٧)

«ولم أرَ امرأةً قط خيرا فى الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصلَ للرحم وأعظم صدقة، وأشدَّ ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يُتصَدَّق به ويُتَقَرَّب به إلى الله عز وجل»

السيدة عائشة أم المؤمنين

(صحيح مسلم: ك الفضائل)

شريفة ومَولٰى

حين دخلت «أم سلمة» بيت النبى ﷺ وتحدثت «عائشة» إلى «حفصة» عما تجد من لواذع الغيرة لما سمعت من جمال العروس، لفتتها «حفصة» إلى أنها على جمالها كبيرة السن، ثم نصحت لها أن تستبقى غيرتها لمن هى أولى.

وكأنما كانت «حفصة» تنطق بظهر الغيب، فما مضى على زواج النبى ﷺ من «أم سلمة» غير عام أو بعض عام، حتى دخلت بيت النبى ﷺ من هى أولى بغيرة عائشة:

«زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية» الشابة الشريفة الحسناء، من بنى أسد بن خزيمة المضرى، وحفيدة عبد المطلب ابن هاشم، أمها «أميمة بنت عبد المطلب» عمة النبى عليه الصلاة والسلام.[1]

* * *

ولو كانت «زينب» قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للنبى ﷺ فحسب، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من فى بيته من أزواج، فكيف وقد كان زواجها بأمر الله تعالى، فى القرآن الكريم؟

(١) ترجمتها فى: طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وتهذيب التهذيب. ومعها والمحبر لابن حبيب: ٨٥، والسيرة الهشامية ٣٩٨/٤، والسمط: ١٠٧، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ مع: نسب قريش ١٩، وجمهرة الأنساب ١٨٠.

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها المدينة المنورة مثل «زينب بنت جحش»، ذلك لما سبق هذا الزواج، وأحاط به، من ظروف خاصة، وما أثاره من شبهة حسمها الوحى.

ولبيان هذا لابد من استطراد يسير، نرجع به إلى ما قبل المبعث، حين رجع «حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى» من تجارة له، ومعه رقيق، فيهم غلام فى الثامنة يدعى زيدا.

وما كان «زيد» عبدًا، بل هو «زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبى» من كلب بن وبرة القضاعى القحطانى، من بنى زيد اللات، خرجت به أمه «سعدى بنت ثعلبة» لتزيره أهلها بنى معن بن طيئ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر، فباعوه بسوق من أسواق العرب، وكان حكيم ابن حِزام بن خُويلد الأسدى هو الذى اشتراه.

وجاءت «خديجة» – وهى يومئذ زوج سيدنا محمد بن عبدالله – تزور ابن أخيها، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان، فأخذت «زيدًا» ورآه سيدنا «محمد» فاستوهبه منها فوهبته له راضية[1].

وكان أبوه «حارثة بن شُراحيل» قد جزع عليه أشد الجزع، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه فى مكة، فانطلق مع أخيه «كعب» حتى وقفا على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى حيث وجداه فى البيت العتيق.

(١) هذه رواية السيرة: ٢٦٤/١ وتاريخ الطبرى ٢١٥/٢ وترجمة زيد فى الاستيعاب (٥٤٤/٢) وطبقات ابن سعد (٤٠/٣) ومعها رواية أخرى أن حكيم بن حزام اشتراه لعمته من سوق عكاظ بأربعمائة درهم، فلما تزوجها سيدنا محمد وهبته له فأعتقه وتبناه قبل المبعث. وقريب منه ما فى السمط الثمين (١٨٠).

فقالا له: «يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العانى وتطعمون الجائع، وقد جئتك فى ابننا، فتحسن إلينا فى فدائه؟»

قال: «أو غير ذلك؟»

قالا: «ما هو؟».

أجاب: «أدعوه وأخَيِّره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدًا».

قالا: «قد زدتَ على النصفة».

ودُعى زيد، فعرف أباه وعمه، وخَيَّره سيدنا محمد: إن شاء ذهب معهما، وإذا أحب أقام معه.

فاختار سيده!

وتوسل إليه أبوه:

«يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك، وبلدك وقومك؟»

فتماسك «زيد» ليجيب:

«إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئا، وما أنا بالذى أفارقه أبدا».

فعند ذلك أخذ محمد بيده، وقام به إلى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا.

ودُعِىَ الغلام «زيد بن محمد».

وبُعِثَ محمد صلى الله عليه وسلم فكان زيد أحد الأربعة السابقين إلى الإسلام.

ولما آخى النبى ﷺ بين أصحابه المهاجرين، كان زيد وحمزة ابن عبدالمطلب الهاشمى، أخوين.

فلما بلغ «زيد» سن الزواج، اختار له النبى عليه الصلاة والسلام بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب: «زينبَ بنت جحش».

وكرهت زينب، وكره أخوها «عبدالله بن جحش» أن تزف الشريفة المضرية إلى مولى، رغم أصله العربى الصريح أبًا وأمًّا. حتى نزل فيهما قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضَى اللّهُ ورسولُه أمرًا أن يكونَ لهُمُ الخِيَرةُ من أمْرِهم، ومَن يعْصِ اللّهَ ورسولَه فقد ضَلَّ ضَلالاً مبينا﴾[1].

وتزوجت «زينب» زيدا... طاعةً لأمر الله ورسوله، وإلزاما بالمبدأ الإسلامى: لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى.

* * *

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٦.

زواجٌ بأمرِ الوَحْى

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما، فما نسيت «زينب» قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق، ولا أساغت أن تكون تحت مولى كهذا، دخل بيت آلها رقيقا! وقاسى «زيد» من صدها وترفعها ما جعله يشتكى إلى النبى ﷺ غير مرة، ما يجد من معاملة زينب، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال، حتى أذن الله تعالى ففارقها زيد، وتزوجها ابن خالها، ﷺ، بأمر الوحى.

وفى طلاقها ثم زواجها، مرويات شتى ما كنت لأتشاغل بها، لولاْ أنها عُزِيَتْ بأخَرَة. إلى من خاضوا فيها من «أعداء الإسلام، من المبشرين والمستشرقين» وكأنْ لا أثر لها فى المراجع الإسلامية المبكرة.

* * *

فى رواية لابن سعد والطبرى من طريق الواقدى، أن النبى ﷺ جاء بيت زيد يطلبه فلم يجده، وقامت إليه زينب فُضُلا فأعرض ﷺ عنها، فقالت: ليس هو ها هنا يارسول الله فادخل بأبى أنت وأمى. وأبَى رسول الله أن يدخل. وإنما عجِلتْ إليه زينب لما قيل لها: رسول الله ﷺ على الباب، فولّى وهو يهمهم بشىء لا يكاد يُفهَم منه، إلاّ أنه ربما أعلن: «سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب» وجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أن رسول الله ﷺ أتى منزله. فقال زيد: ألا قلتِ له أن يدخل؟ قالت: قد عرضت عليه فأبى.. فخرج زيد حتى أتى رسول الله

ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغنى أنك جئت منزلى، فهلاَّ دخلت بأبى أنت وأمى..؟ ثم سأله، كما كان يسأله من قبل: فأفارقها؟ فقال ﷺ: «أمسِكْ عليك زوجَك» فما استطاع زيد مع زينب صبرا، فكان يأتى رسول الله ﷺ فيخبره، فيقول له: «أمسك عليك زوجك»[١]..

وفى رواية أخرى للطبرى، من طريق يونس بن عبدالأعلى، الصدفى المصرى، أن رسول الله ﷺ «خرج يوما يريد زيدًا، وعلى الباب سِتْر من شعر، فرفعت الريحُ الستر وزينب فى حجرتها، فانصرف ﷺ، لم يدخل. فجاءه زيد فقال: يا رسول الله، أريد أن أفارق صاحبتى، فقال: «مالَكَ؟ أرابَكَ منها شىء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما رابنى منها شىء ولا رأيتُ إلا خيرا. فقال له رسول الله ﷺ: «أمسِكْ عليكَ زوجَك واتَّقِ اللهَ» فذلك قول الله عز وجل: ﴿وإذْ تقولُ لِلَّذِى أنْعَمَ الله عليه وأنْعمْتَ عليه أمْسِك عليك زوجَكَ واتَّقِ الله، وتُخفِى فى نفسِك مَا الله مُبْدِيه﴾[٢]

وتأول «الزمخشرى» الآية من سورة الأحزاب، فنحا بها منحىً صريحَ الاعتزال، على ما يأتى فى موضعه من هذا العرض..

هل يجدى أن نطرح هذه المرويات جملة ونرمى بها المستشرقين والمبشرين، ونحملها على زور مفترياتهم، مع وجودها مدونة فى كتب إسلامية مبكرة، كطبقات ابن سعد، ومحبر ابن حبيب، وتاريخ الطبرى،

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠١/٨) والنقل منه، وتاريخ الطبرى، السنة السادسة (٤٢/٣ ط. أولى، حسينية) من طريق الواقدى، ونحوه فى المحبر (٨٥) والسمط ١٠٨.

(٢) تاريخ الطبرى ٤٣/٣. والنقل منه، والطبرانى فى زوائده.

ومعجم الطبرانى، وكشاف الزمخشرى؟!

أغلب الظن أن «الدكتور محمد حسين هيكل» لم يقف على هذه المرويات، فذهب إلى أنها - يقينا - من مفتريات المستشرقين والمبشرين: «الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام وولع، وأنه يكفى لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام.. و .. وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا، قبل أن تتزوج زيدا.. وأنه الذى خطبها على زيد مولاه. إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص: من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال: سبحان الله مقلب القلوب. أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار على غرفة زينب فألفاها فى قميصها وكأنها مدام ريكاميه. فانقلب فجأة ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سلمة..»[١]

وعند الدكتور هيكل أن هذا الزواج لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة، وإنما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس فى خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة، فلم يرضَ له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه..[٢]

وأضاف الدكتور هيكل:

---

(١) حياة محمد: ٢٩١: وقوله «زينب بنت مخزوم» فيه وهم، فهى بنت خزيمة الهلالية ولم تدرك زواج بنت جحش، بل توفيت قبله بزمن.

(٢) حياة محمد صلى الله عليه وسلم: ٢٩٢-٢٩٤.

«أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكررها المستشرقون والمبشرون.

«ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة، والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للإسلام تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية، هى التى تملى على هؤلاء جميعًا ما يكتبون».

ولا حيلة لنا فى عزو هذه المرويات إلى المبشرين، مع وجودها فى كتب لقدامى المؤرخين والمصنفين والمفسرين، مطبوعة متداولة بين الدارسين والقراء. لهذا قدَّرتُ أن فحص هذه المرويات ونقدها، إسنادًا ومتنًا، أوْلى من إنكارها وحملها على شهوة التبشير ومفتريات الاستشراق.

رواية الواقدى، فى طبقات ابن سعد، عن الستر الذى حركته الريح، قال فيها الحافظ ابن حجر: «وسنده ضعيف»[١].

وهى عند الطبرى من طريق الواقدى، ومعها الرواية الأخرى من طريق ابن عبد الأعلى الصدفى، وكلتاهما من مراسيل التابعين. وقد اقتصر الطبرى على ذكرهما فى (تاريخه) ولم يشر إليهما فى (تفسيره) لسورة الأحزاب.

وما رواه الطبرانى، خرجه نور الدين الهيثمى من زوائده قال: «بسند مرسل، وفى بعض رجاله ضعف»[٢].

وتأويلُ الزمخشرى مشوب بمنحى المعتزلة، قال: «فإن قلت: ما الذى أخفى فى نفسه؟ قلتُ: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد إياها. فإن

(١) فتح البارى: ٣٢١/١٣ط. أولى

(٢) مجمع الزوائد: ٢٤٧/٩ ط. أولى.

قلت: كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به؟.. قلتُ: كم من شىء يتحفظ منه الإنسان ويستحى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله... لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع، لأنه ليس بفعل الإنسان، ولا وجوده باختياره»[1]

وذلك، منه، صريح اعتزال.

قال القاضى عياض: «... فإن قلتُ: فما معنى قوله تعالى فى قصة زيد: ﴿وإذْ تقولُ لِلَّذِى أنعمَ اللهُ علَيْهِ وأنعمتَ عَلَيْهِ أمسِكْ عليكَ زوجَكَ﴾.. الآية، فاعلم أكرمك الله ولا تسترب فى تنزيه النبى ﷺ من هذا الظاهر، وأن يأمر زيدًا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصحُّ ما فى هذا ما حكاه أهل التفسير عن على ابن حسين، - الإمام زين العابدين رضى الله عنه- أن الله تعالى كان أعلَمَ نَبيَّه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد قال له: «أمْسِكْ عليكَ زوجكَ واتقِ اللهَ» وأخفى منه فى نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها، مما الله مُبديه ومُظهِره بتمام التزويج وطلاق زيدٍ لها. وروى نحوَه عمرو بن فائد - الأسوارى - عن الزهرى.. ويوضح هذا أن الله لم يُبدِ من أمره معها غير زواجه لها، فدلَّ أنه الذى أخفاه ﷺ.. ولو كان على ما رُوِى فى حديث قتادة من وقوعها فى قلب النبى ﷺ عندما أعجبته، ومحبته طلاق زيد لها، لكان فيه أعظم الحرج وما لا يليق به من مدّ عينيه لما نُهِىَ عنه من زهرة الحياة الدنيا، ولكان هذا نفس

---

(١) تفسير الكشاف: سورة الأحزاب.

الحسد المذموم الذى لا يرضاه ولا يتسم به الأتقياء فكيف سيد الأنبياء؟ قال القشيرى: وهذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبى ﷺ وفضله. وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ،وهو زوَّجها لزيد؟ وإنما جعل الله طلاق زيدٍ لها وتزويج النبى ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبنى وإبطال سنته، كما قال عز وجل: ﴿ما كان محمدٌ أبَا أحَدٍ من رجالِكم﴾. وقال: ﴿لِكَيْلا يكونَ علَى المؤمنين حَرَجٌ فى أزواجِ أدْعيائِهم﴾. وقد قيل: كان أمره لزيد بإمساكها قمعًا للشهوة وردًّا للنفس عن هواها. وهذا إذا جوَّزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها. ومثلُ هذا لا نُكرةَ فيه، لما طُبعَ عليه ابنُ آدم من استحسانه الحسنَ، ونظرةُ الفُجاءة معفو عنها، ثم قمع نفسه عنها وأمر زيدًا بإمساكها، وإنما تُنكرَ تلك الزيادات التى فى القصة، والأوْلى ما ذكرناه عن على بن حسين، وحكاه السمرقندى، وهو قول عطاء، واستحسنه القاضى القشيرى، وعليه عوَّل أبو بكر ابن فَوْرَك وقال إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير، قال: والنبى ﷺ منزه عن النفاق وإظهار خلاف ما فى نفسه، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله: ﴿ما كانَ على النبىِّ من حَرَجٍ فيما فرضَ اللهُ له﴾.. قال: وليس معنى الخشية هنا الخوف، وإنما معناه الاستحياء، أى يستحيى منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس، كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فعتبه الله على هذا، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله الله له، كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه فى (سورة التحريم) بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾

الآية. كذلك قوله له هٰهنا: ﴿وتَـخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تخْشَاهُ﴾.

وقد رُوى عن الحسن وعائشة: لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا، لكتم هذه الآية، لما فيها من عتبه وإبداء ما أخفاه»[1].

بعد فحص النظار لما مرَّ من مرويات، ونقد القاضى عياض - عالم المغرب المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ - أنقل من مصادرنا الموثقة، مما صح عند حفاظنا الأئمة فى هذه القضية:

أخرج الإمام البخارى فى كتاب التوحيد من (صحيحه) حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه، قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى ﷺ يقول: «اتَّقِ اللَّهَ وأمسِكْ عليكَ زوجَك» قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذا الحديث.

وفى تفسير آية الأحزاب: ﴿... وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيه، وتَخْشَى الناسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ أسند البخارى عن أنس، رضى الله عنه: «أنها نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة» رضى الله عنهما.

وقد استوفى الحافظ ابن حجر فى هذا الموضع من كتاب التفسير بصحيح البخارى، تخريج حديث أنس من مختلف طرقه ومختلف رواياته، ثم قال: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى، ونقلها كثير من المفسرين، لا ينبغى التشاغل بها. والذى أوردتُه عنها هو المعتمد. والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته. والذى كان يحمله على إخفاء ذلك، خشيةُ قولِ الناس:

(١) القاضى عياض: الشفا: (٢/١٦٦ - ١٨٦) ط. الحلبى بالقاهرة ١٣٦٩ - ١٩٥٠ م.

تزوج امرأة ابنه. وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى، بأمرٍ لا أبْلَغَ فى الإبطال منه، وهو تزوجُ امرأةِ الذى يُدعَى ابنًا، ووقوعُ ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم، وإنما وقع الخبطُ فى تأويل متعلقِ الخشيةِ، والله أعلم»[1].

ثم لا أزيد عليه سوى ذكر آية الأحزاب فى تمام سياقها:

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

صدق الله العظيم

(١) فتح البارى ٣٧١/٨، وقابل على: الاستيعاب ١٨٤٩/٤، وتفسير الطبرى ٧٥/٢١، والإصابة ٢٩٢/٨ وعيون الأثر ٣٠٤/٢.

وَلِيمَةٌ.. وحِجَاب

فى صحيح الحديث عن ثابت البُنانى عن أنس رضى الله عنه، قال: «لما انقضت عِدَّةُ زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: «فاذْكُرْها علىَّ» فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخَمِّر عَجِينَها، قال: فلما رأيتُها عظُمتْ فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها. فوليتُها ظهرى ونكصتُ على عَقِبى فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربى. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . قال أنس: ولقد رأيتُنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعتهُ، فجعل يتتبع حُجَر نسائه يسلم عليهن، ويقُلْن: يارسول الله كيف وجدتَ أهلك؟ قال:فما أدرى؟ أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا، أو أخبرنى؟ فانطلق حتى دخل البيت فذهبتُ أدخل معه فَأَلْقَى الستر بينى وبينه، ونزل الحجاب».

زاد محمد بن رافع، من شيوخ مسلم، رواة الحديث: آية الحجاب: ﴿لا تدخلوا بيوتَ النبىِّ إلّا أن يُؤْذَنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرين إناهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿واللَّهُ لا يَسْتَحيى منَ الحقِّ﴾[1].

---

(١) صحيح مسلم: ك النكاح، باب زواج زينب رضى الله عنها: (ح ١٤٢٨/٨٩) مع حديث أنس رضى الله عنه فى المتفق عليه. فى (اللؤلؤ: ك النكاح، ح ٩٣) وابن سعد فى ترجمتها بالطبقات من عدة طرق، وانظر ترجمتها فى الاستيعاب والإصابة.

وعن ثابت عن أنس رضى الله عنه، قال: «ما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوْلَمَ على امرأة من نسائه ما أوْلم على زينب، فإنه ذبح شاة»[١].

وفى (الصحيحين) عن أنس رضى الله عنه «أن أُمَّه - أم سليم الأنصارية - عمدت إلى تمر وسمن وأَقِط فاتخذت طعاما فى بُرْمة، فأرسلت بها معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، هديةً له يوم عرسه بزينب. فانطلق بها أنس فأمره صلى الله عليه وسلم أن يضعها، وأن يدعو رجالا سماهم، قال: «وادعُ لى من لقيت». قال أنس: ففعلت الذى أمرنى، فرجعت فإذا البيت غاصٌّ بأهله، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم وضع يديه على تلك الحَيْسَة - الطعام - وتكلم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم: «اذكروا اسم الله وليأكلْ كل رجل مما يليه» حتى تصدعوا جميعا - أى تفرقوا - فخرج منهم من خرج وبقى نفر يتحدثون».. الحديث بطوله، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع وأرخى الستر سمعه أنس يتلو:

﴿يأيُّهَا الذينَ آمنُوا لا تدخُلوا بيوتَ النبىِّ إلَّا أن يُؤْذَنَ لَكُم إلَىٰ طَعَامٍ غيرَ ناظِرِينَ إناهُ ولٰكن إذا دُعِيتُمْ فادخُلوا، فإذا طَعِمتُم فَانْتشِروا، ولَا مُسْتأنِسينَ لِحَديثٍ، إنَّ ذٰلكم كانَ يؤذِى النبىَّ فيستَحْيِى منكم، واللَّهُ لا يَستحيِى مِنَ الحقِّ﴾[٢] الآية.

---

(١) مسلم، ك النكاح (ح، ٩).

(٢) الحديث متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه. واللفظ من (اللؤلؤ والمرجان: ك النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس) والآية من سورة الأحزاب: ٥٣.

ومن يومئذ، فُرض الحجابُ على نساء النبى، وعلى المؤمنات جميعا، رمزَ تصوُّنٍ وعزةٍ، وسمةَ كرامةٍ وترفعُ عن الابتذال..

كانت العروس يوم تزوجها النبى ﷺ فى السنة الخامسة على أرجح الأقوال، بنت خمسٍ وثلاثين سنة[١].

وكان اسمها «بَرَّة» فسماها ﷺ زينب، وفى (الصحيحين) حديث زينب بنت أبى سلمة، ربيبة النبى ﷺ، رضى الله عنها:

«كان اسمى بَرَّة، فسمانى رسول الله ﷺ زينب. ودخلتْ عليه زينب بنت جحش واسمُها بَرَّة، فسماها زينب»[٢].

---

(١) الإصابة، عن الواقدى: ٩٣/٨، وعيون الأثر ٣٠٤/٢.

(٢) متفق عليه واللفظِ من صحيح مسلم ١٦٨٧/٣: ح (٢١٤٢) مع (اللؤلؤ والمرجان ٤٧/٣).

أكرمُهنَّ وَلِيًّا وسَفِيرًا

ودخل محمد ﷺ ببنت عمته، التى زوجه إياها الله تعالى.

وباتت السيدة «عائشة» ليلتها فريسة الغيرة، قد أخذها، فيما قالت: «ما قرُب وما بعُد، لما تعرف من جمال زينب، ولما هى حَرِيَّة أن تفخر من صنع الله لها».

وكذلك غارت نساء النبى رضى الله عنهن، وضقن بهذه العروس الجديدة التى تعتز بجمال وشرف وقربى من رسول الله ﷺ، وبأن الله هو الذى زوجها.

وفى حديث أنس، رضى الله عنه، بكتاب التوحيد من صحيح البخارى، قال: «.. فكانت زينب تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات»[1].

وفى رواية قالت: «أنا أكرمُكن وليا، وأكرمكن سفيرا: زوجكن أهلكن، وزوجنى الله من فوق سبع سمٰوات!»[2].

وعدّ ابن حبيب زواجها، فى مناقب قومها بنى أسد[3].

(١) معه (فتح البارى: ٣٢/١٣).
(٢) طبقات ابن سعد: ٧٣/٨، المحبر ٨٦، الاستيعاب، الإصابة، عيون الأثر.
(٣) المحبر: ٨٦.

وإذا كانت «أم سلمة» قد سرها أن ترى أثر دخولها على «عائشة»، الزوج المفضلة، فلا ريب فى أن زينب قد أرضاها أن تجىء فيكون لها ما تفخر به عليهما.

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب، كما لم تكتمها من أم سلمة، بل اعترفت بأنهما: «كانتا أحب نسائه إليه - فيما أحسب - بعدى».

ثم تؤثر زينب وحدها بمنافستها فى الحظوة فتقول: «لم تكن واحدة من نساء النبى تناصينى غير زينب»[١].

أى تنازعنى وتبارينى، من قولك: ناصيت فلانا إذا أخذت بناصيته ونازعته.

وقد مر بنا ما كان من ضيق «عائشة» بميله ﷺ إلى زينب «وإطالته المكث لديها» ثم تآمرها مع حفصة وسودة، أيتهن دخل عليها صلى الله عليه وسلم انصرافه من عند زينب، فلتقل له: «إنى أجد ريح مغافير»[٢].

وكان يحدث أحيانا أن تحتد بينهما المنافسة فى حضرته صلى الله عليه وسلم، فيدعهما وشأنهما لعل فى هذا راحة لهما وتنفيسا عن مشاعرهما. وقد استطاعت «عائشة» مرة أن تغلب «زينب» فما زاد ﷺ على أن تبسم وقال: «إنها ابنة أبى بكر»[٣].

---

(١) السيرة ٣/٣١١، الاستيعاب، الإصابة.

(٢) حديث العسل والمغافير متفق عليه (اللؤلؤ ٢/١٢٧) وقد مرَّ، مع: السيدة عائشة، والسيدة حفصة رضى الله عنها.

(٣) أخرجه البخارى فى المناقب، ومسلم فى باب فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها ح: ٤٤٢).

وحدث مرة أخرى، أن أفلت لسان «عائشة» بكلمة غضب لها المصطفى، فقد تلقى هدية وهو فى بيتها، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها. لكن زينب ردَّت ما جاءها، فلم تملك عائشة أن قالت كلمة غضب لها النبى عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ما كان من موقف زينب من «صفية بنت حُيَىّ، أم المؤمنين» وقول زينب لرسول الله ﷺ: «أنا أعطى تلك اليهودية؟!».

ويأتى حديثها فى المبحث الخاص بصفية، بمشيئة الله تعالى.

* * *

وأطولهنَّ يدًا

على أن هذه الخصومة المعلَنة بين الزوجتين الأولَيَيْن، لم تمنع حفيدة عبد المطلب من الدفاع عن «عائشة» فى محنة الإفك، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت فى رواية ابن إسحاق من طريق الزهرى:

«وكان كِبر ذلك - الإفك - عند عبد الله بن أبى بن سلول فى رجال من الخزرج، مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش. وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصينى فى المنزلة عنده غيرها.. فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيرا، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارّنى لأختها، فشقيت بذلك»[1].

وفى رواية عن عائشة رضى الله عنها، قالت: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمرى، فقال لزينب: «ماذا علمتِ أو رأيت؟» قالت: يارسول الله، أحمى سمعى وبصرى، والله ماعلمتُ إلا خيرًا. قالت عائشة: «وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حَمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك»[2].

---

(١) السيرة (٣/٣١٢) مح حديث الإفك، رواية الزهرى، فى (الصحيحين).

(٢) متفق عليه. والنقل من (اللؤلؤ: ك التوبة) ح ١٧٦٣.

أجل عصمها الله تعالى بدينها، وقد كانت «زينب» صالحة تقية، صادقة التدين.

شهدت لها بذلك كله غريمتها السيدة عائشة فقالت:

«ولم أر امرأة قط خيرًا فى الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به إلى الله عز وجل»[١].

وأسند أبو عمر فى (الاستيعاب) عن عبد الله بن شداد الليثى أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «إن زينب بنت جحش أواهة» فقال رجل: يا رسول الله: ما الأواه؟.. قال: الخاشع المتضرع. ثم تلا ﷺ: ﴿إن إبراهيمَ لَحليمٌ أوَّاه منيبٌ﴾[٢].

وكانت كذلك كريمة خيرة، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين، عيال الله الذى أكرمها وأعزها، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها.

* * *

وألغى موت محمد ﷺ، ما بين «زينب» وبين ضرائرها من التنافس على زوجهن الحبيب المصطفى ﷺ، فلم يعدن يذكرن إلا أنها كانت له ﷺ زوجًا حبيبة، وللمؤمنين أمًّا رحيمة، ولربها عابدة قانتة.

ذكرتْها «أم سلمة» فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين «عائشة» ثم قالت:

---

(١) صحيح مسلم، ح: (٢٤٥٢)، والاستيعاب، والسمط ١١٠، والإصابة.

(٢) الاستيعاب، والآية من سورة هود: ٧٥.

«كانت زينب لرسول ﷺ معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة قوامة صوامة، صَنَاعًا تدبغ وتخرز، وتتصدق بذلك كله على المساكين»[١].

وسُمعت «عائشة» تقول حين بلغها نعى «زينب»:

«لقد ذهبت حميدة متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل».

فى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها، أن بعض أزواج النبى ﷺ قلن للنبى ﷺ: أينا أسرع بك لحوقا؟ قال: أطولكن يدا فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدا. فعلمنا بعدُ أنما كانت - زينب - طولُ يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقا به، وكانت تحب الصدقة.

وفى رواية عن عائشة، قالت:

«قال رسول الله ﷺ: أسرعكن لحاقا بى أطولكنَّ يدا... فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ، نمد أيدينا فى الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبى ﷺ إنما أراد طوال اليد بالصدقة، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز، وتتصدق فى سبيل الله»[٢].

وفى الصحيح أن «عمر بن الخطاب - أمير المؤمنين - أرسل إليها عطاءها اثنى عشر ألفًا، فجعلت تقول: اللهم لا يدركنى هذا المال فى قابل، فإنه فتنة»[٣].

---

(١) الإصابة.

(٢) طبقات ابن سعد: ١٠٨/٨. والاستيعاب: ١٨٥١/٤ والإصابة /٩٣ عن الواقدى. السمط الثمين: ص ١١٠.

(٣) فى ترجمتها: الاستيعاب والإصابة. وأخرجه مسلم بلفظ مقارب، فى كتاب فضائل الصحابة: ح(٢٤٥٢) ومعه طبقات ابن سعد: ١١٠/٨.

ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة، فبلغ «عمر» ذلك، فوقف ببابها وأرسل إليها بالسلام وقال:

«بلغنى ما فرقتِ، فأرسل ألف درهم تستبقينها».

وأرسل الألف، فتصدقت بها جميعًا، لم تُبْقِ منها درهما.

وحين حضرتها الوفاة - سنة عشرين -[١] قالت:

«إنى قد أعددت كفنى، وإن عمر أمير المؤمنين، سيبعث إلىَّ بكفنٍ، فتصدقوا بأحدهما. وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوى - إزارى - فافعلوا»[٢].

وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وشيع أهل المدينة إلى البقيع، أم المؤمنين زينب بنت جحش، أول من مات من نساء النبى ﷺ، وأسرعهن لحاقا به. وازدحموا على نعشها. روى ابن سعد من طريق الواقدى بسنده عن عبد الله بن أبى سليط الحجازى التابعى، قال: «رأيت أبا أحمد بن جحش يحمل سرير زينب بنت جحش -أخته- وهو مكفوف وهو يبكى، فأسمعُ عمرَ يقول: يا أبا أحمد: تنحَّ عن السرير، لا يُعَنِّكَ الناس- وازدحموا على سريرها- فقال أبو أحمد: أعمر، هذه التى نلْنَا بها كل خير، وإن هذا يبرد حَرَّ ما أجد. فقال عمر: الزمْ، الزمْ.»[٣].

وعن عبدالله بن عامر بن ربيعة، قال: «رأيت عمر بن الخطاب سنة

---

(١) فى رواية أنها توفيت سنة إحدى وعشرين، عام فتح العرب للإسكندرية (الاستيعاب ١٨٥٢/٤/ والإصابة ٩٤/٨ وعيون الأثر ٣٠٥/٢.

(٢) الإصابة عن الواقدى، والسمط الثمين ١١١، مع طبقات ابن سعد: ١٠٩/٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ١١٣/٨.

عشرين فى يوم صائف، ورأيت ثوبا مُدَّ على قبرها، وعمر على شفير القبر، معه أبو أحمد ذاهب البصر، وعمر بن الخطاب قائم على رجليه، والأكابر من أصحب رسول الله ﷺ، قيام على أرجلهم»[١].

«وعن الشعبى أنه صلَّى مع عمر على زينب، وكانت أول نساء النبى ﷺ موتا - بعده - وكان عمر يعجبه أن يدخلها فى قبرها، فأرسل إلى أزواج النبى ﷺ: من يدخلها فى قبرها؟ فقلن: من كان يراها فى حياتها فليدخلها فى قبرها»[٢].

* * *

«لأم المؤمنين زينب رضى الله عنها عند الستة أحد عشر حديثًا. روى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، ومولاها مدكور، وأم المؤمنين أم حبيبة، والربيبة زينب بنت أبى سلمة... وعدد من كبار التابعين والتابعيات»[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد: ١١٣/٨.

(٢) «ورواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح»: مجمع الزوائد للنور الهيثمى: ٢٤٨/٩.

(٣) تهذيب التهذيب النساء ٤٢٠/١٢ (٢٨٠١).

(٨)
جُوَيْرِيةُ بنتُ الحارث
سيدة بنى المصطلق*

«.. وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها: أُعتِقَ بزواجها من رسول ﷺ، أهلُ مائة بيتٍ من بنى المصطلق.»

(السيرة، والاستيعاب والإصابة)

---

* من كُتَّاب السيرة من يقدمون فى ترتيب أمهات المؤمنين، «أم حبيبة بنت أبى سفيان» على جويرية، باعتبار خطبة الأولى وهى فى الحبشة. كما فى السيرة الهشامية والمحبر.

ومنهم - كالحافظ ابن سيد الناس فى عيون الأثر - من قدم جويرية على أم حبيبة، باعتبار بناء الرسول ﷺ بأم حبيبة، حين عادت من الحبشة بعد خيبر.

الأسيرة الحسناء

شُغِلَ المصطفى ﷺ، بعد زواجه بزينب بنت جحش، بأحداث هامة كبار، ملأت النصف الثانى للعام الخامس الهجرى، ففى شهر شوال وأوائل ذى القعدة[1] كانت وقعة «الخندق» التى لقى فيها النبى ﷺ والمسلمون جموع الأحزاب من المشركين الذين عبأهم اليهود لحرب الإسلام فى دار هجرته، لقيهم النبى ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذى حفره حول المدينة، وقد أقبلت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

ونقض اليهود عهد الموادعة، وجهروا بالخيانة والغدر... وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزلزلوا زلزالاً شديدًا حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق وقال قائلون: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر. وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال طمعًا فى الغنيمة، فلما ظنوا أنه مهزوم، كروا راجعين إلى ديارهم.

---

(١) فى السيرة (٢٢٤/٣) أن غزوة الخندق كانت فى شوال سنة خمس، ومثله فى تاريخ الطبرى (٤٣/٣) قابل على طبقات ابن سعد (٤٧/٢) وعيون الأثر ٦٨/٢.

(٢) السيرة ٢٣٠/٣ - وطبقات ابن سعد: ٤٧/٢ وتاريخ الطبرى: ٤٦/٣.

وكان حصارًا مرهقًا استغرق سبعة وعشرين يومًا، ثم دارت الدائرة على المشركين، وتم النصر لرسول الله ﷺ، والذين معه[٢].

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم الموقعة، وأووا إلى بيوتهم فى الصبح يلتمسون راحة، فما انتصف النهار حتى تناهى إلى أسماعهم صوت مؤذن النبى ﷺ يؤذن فى الناس:

«من كان سامعا مطيعا فلا يصلينَّ العصر إلا فى بنى قريظة».

واستأنفوا القتال، وحاصروا يهود بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم فى شهر ذى القعدة وصدر ذى الحجة[١].

بعدها كانت غزوة بنى لحيان، وغزوة ذى قرد. وعاد ﷺ إلى المدينة فما كاد يقيم بها شهرًا وبعض شهر، حتى بلغه أن بنى المصطلق - وهم حى من خزاعة - يجمعون الجموع لقتاله، بقيادة زعيمهم «الحارث بن أبى ضرار بن حبيب المصطلقى الخزاعى»[٢].

وخرج إليهم ﷺ ومعه من نسائه «عائشة بنت أبى بكر» حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، فكان قتال انتهى بهزيمة بنى المصطلق.

وسيقت نساؤهم سبايا، وفيهن «بَرَّة بنت الحارث ابن أبى ضرار ابن حبيب» سيد القوم وقائدهم، أو«جويرية» كما سماها ﷺ.

وقفل راجعا إلى المدينة.

فبينا هو جالس يوما فى حجرة عائشة، سُمعت امرأة تستأذن فى لقاء النبى ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبرى: ٥٣/٣، والسيرة ٣٠١/٣.

(٢) تاريخ الطبرى، حوادث السنة السادسة للهجرة، وانظر جمهرة أنساب العرب: ٢٢٨.

وقامت «عائشة» إلى الباب لترى مَن تلك، فإذا شابة حلوة، مفرطة الملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه[١]، فى نحو العشرين من عمرها، ترتجف قلقا وذعرا، وقد زادها انفعالها حيوية وجمالا.

فى رواية عن السيدة عائشة أم المؤمنين، وذكرت الأسيرة الحسناء، قالت: «.. فوقعتْ فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى، فكاتبها على نفسها... وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فبينا النبى ﷺ عندى إذ دخلت عليه جويرية تسأله فى كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتُ دخولها على النبى ﷺ، وعرفت أنه سيرى منها الذى رأيت».

ودخلت الشابة المليحة فقالت فى ضراعة تمازجها عزة:

«يارسول الله، أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس... فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على أمرى»[٢].

ورق قلبه الكريم للعربية الخزاعية، بنت سيد بنى المصطلق، فى موقفها ببابه مستطارة اللب مستثارة القلق، تلوذ بمروءته ونجدته.

* * *

وتكلم المصطفى ﷺ فقال: «فهل لك فى خير من ذلك؟»

سألت فى لهفة وحيرة: «وما هو يا رسول الله؟»

---

(١) ابن إسحاق فى السيرة: ٣٠٧/٣، وتاريخ الطبرى: ٦٦/٣ والاستيعاب ١٨٠٤/٤ والسمط الثمين: ١١٧. ومناقبها فى (مجمع الزوائد: ٢٥٠/٩)

(٢) طبقات ابن سعد (١١٦/٨) والسيرة، والاستيعاب والإصابة من طريق الواقدى.

قال: «أقضى عنك كتابتك، وأتزوجك!»

فتألق وجهها الجميل بفرحة، وقالت وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان: «نعم يا رسول الله!»

قال عليه الصلاة والسلام: «قد فعلت!»[١].

وفى رواية بالاستيعاب والإصابة، «أن النبى ﷺ سَبَى جويرية - ويعنى أن يتزوجها - فجاءه أبوها فقال: يامحمد، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها، فإن ابنتى لا يُسْبَى مثلُها، فخلِّ سبيلها. قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيت إن خيَّرتُها، أليس قد أحسنتُ؟» قال: بلى. فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت: اخترت الله ورسوله.

وقيل إن أباها كان قد أخفى بأحد شعاب مكة بكرين مما جاء به فى فداء ابنته، فلما سأله رسول الله ﷺ عنهما، قال: «أشهد أنك رسول الله حقا» فخطب إليه ابنته، فزوجه إياها، وكان صداقها أربعمائة درهم[٢]

* * *

(١) السيرة ٣٠٧/٣ - والنقل منها - وطبقات ابن سعد ١١٨/٨ - والمحبر ٢٨٩ وتاريخ الطبرى ٦٦/٣ وترجمتها فى الاستيعاب ١٨٠٤/٤، والإصابة ٤٣/٨، وعيون الأثر ٢/

(٢) السيرة: ٣٠٨/٣، والسمط ١١٧، وعيون الأثر ٣٠٥/٢.

بَرَكة العرُوس

وما أسرع ما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبي ضرار، فتداعَوا لتكريم السيدة التى أعزها نبيهم بالزواج.

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون: «أصهار رسول الله».

ودخلت العروس بيت النبى، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها: أُعتِقَ بزواجها من رسول الله ﷺ، أهلُ مائة بيتٍ من بيوت بنى المصطلق[1].

«وسماها ﷺ جويرية، كراهة أن يقال: خرج من عند برة»[2].

وظلت «جويرية» ما عاشت، تبارك تلك اللحظة السعيدة التى لقيته فيها، فنجت من العار، وأعتقت قومها من الأسر، وكرمت بالزواج من سيد البشر.

وكذلك ظلت «عائشة» تذكر تلك اللحظة، لكن فى مرارة وألم، فتقول فى صراحة مؤثرة:

---

(١) السيرة ٣٠٧/٣، وتاريخ الطبرى ٦٦/٣ - والاستيعاب، والإصابة، والسمط الثمين ١١٦. ومناقبها، رضى الله عنها، فى (مجمع الزوائد ٢٥٠/٩)

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس: ١٦٧٨/٣ح (٢١٤٠) وابن عبدالبر فى ترجمتها بالاستيعاب من عدة طرق، وابن حجر فى الإصابة، من طريق مسلم.

«... وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلّا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، فو الله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيت...»[١].

وهل من حرج على الرسول ﷺ فى أن ينظر إلى جويرية؟

قال «السهيلى» فى شرحه للسيرة الهشامية: «وأما نظره عليه السلام لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة... وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها. وقال للمغيرة، بن شعبة، حين شاوره فى نكاح امرأة: «لو نظرت إليها، فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينكما.» وقال مثل ذلك لمحمد بن مسلمة الأنصارى حين أراد نكاح «بثينة بنت الضحاك»[٢].

وقد كان ما توقعت «عائشة» وخافت:

نظر ﷺ إلى الأسيرة الحسناء، وأصبحت «جويرية بنت الحارث» شريكة لعائشة فى بيت النبى ﷺ.

كما أصبحت وقد أسلمت وحسن إسلامها، أمًّا للمؤمنين.

على أن «عائشة» ما لبثت أن شُغِلتْ عن «جويرية» وغير جويرية، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بنى المصطلق، من قيلٍ وقال.

حتى إذا انجلت غمة الإفك، وعادت عائشة إلى بيت النبى معتزة بما أنزل الله فى براءتها من آيات، واجهتها «جويزية» بملاحتها الأخاذة، فما

---

(١) أسنده ابن إسحاق فى السيرة، وابن عبدالبر فى الاستيعاب، وابن حجر فى الإصابة، عن ابن إسحاق.

(٢) الروض الأنف ١٩/٣.

كان من عائشة إلا أن قالت فى زهو وهى تنقل بصرها بين جويرية، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وحفصة، وطيف ماثل من خديجة: لم يتزوج، ﷺ، بكرا سواى.

ذلك أن «جويرية» كانت قبل أن تسبى زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقى، ابن عمٍّ لها، قتل يوم المُرَيْسِيع[١].

وقد عاشت إلى أن استقر الأمر لمعاوية، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول الهجرى «سنة ست وخمسين على الأرجح، وصلى عليها «مروان بن الحكم» أمير المدينة، وقد بلغت سبعين سنة. وقيل: توفيت سنة خمسين، وهى بنت خمس وستين سنة».[٢]

رضى الله عن جويرية، أم المؤمنين التى «لم تكن امرأة أعظم على قومها بركةً منها».

* * *

(١) فى المحبر ٨٩، وطبقات ابن سعد ١١٦/٨، والاستيعاب: ١٨٠٤/٤ والإصابة ٤٣/٨ والسمط الثمين ص ١١٦، قابل على تاريخ الطبرى (١٧٧/٣)

(٢) الاستيعاب، والإصابة، وعيون الأثر ٣٠٥/٢ وتهذيب التهذيب ٤٠٧/١٢، والسمط ١١٨.

(٩)

صَفِيّة بنتُ حُيَيّ
عَقيلة بنى النضير

«وأمر ﷺ بصفية فحِيزتْ خلفه، وألقى عليها رداءه فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه».

صحيح مسلم
والسيرة النبوية

خَرِبَتْ خَيْبَر

انتهت السنة السادسة للهجرة، بعد أن أحدثت فى بيت النبى ضجة ما مثلها ضجة: تزوج فيها ﷺ جُويرية بنت الحارث، وابتلى بمحنة الإفك فى أعز أزواجه عليه ﷺ وأحبهن إلى قلبه بعد خديجة. وفيها أيضا، تم صلح الحديبية.

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع، وهو يتهيأ لمعركة حاسمة تقطع دابر اليهود اللئام الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير، وما يبيتون للإسلام من شر وغدر.

وخرج عليه الصلاة والسلام فى النصف الثانى من المحرم[1] إلى «خيبر» معقل العدو، فما أشرف عليها حتى قال:

• «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساء صباحُ المنذَرين».

وخربت خيبر: فُتِحَتْ حصونها حصنا حصنا، وقُتِلَ رجالها، وسُبِيَ نساؤها، وفيهن عقيلة بنى النضير «صفية بنت حُيى بن أخطب» التى ينتهى نسبها إلى هارون أخى موسى عليهما السلام، وأمها بـرة بنت شموال - أو: سَمَوْءَل - القرظية.

ولم تكن صفية قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها.

---

(١) فى السيرة ٣ / ٣٤٢، وتاريخ الطبرى، وعيون الأثر ٢ / ١٣٠، وطبقات ابن سعد أن غزوة خيبر كانت فى جمادى الأولى.

لكنها، على صغر السن، تزوجت مرتين:

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم: «سَلَام بن مِشْكَم القُرَظِى»

ثم خلف عليها «كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى» صاحب حصن «القموص» أعز حصن فى خيبر[١].

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد جهاد مرير، وجيء بكنانة حيا، وكان عنده كنز بنى النضير، فسأله ﷺ عنه: فجحد أن يكون يعرف مكانه، فقال النبى عليه الصلاة والسلام:

«أرأيتَ إن وجدناه عندك، أأقتلك؟»

قال: نعم..

فلما اكتُشف مخبأ الكنز عنده، دفعه ﷺ إلى «محمد بن مَسْلَمة الأنصارى البدرى» فضرب عنقه بأخيه «محمود بن مسلمة» الذى قتله اليهود فى أول المعركة عند حصار حصن ناعم: ألقَوا عليه رَحىً فقتلته[٢].

وسيقت نساء القموص سبايا، وفى مقدمتهن «صفية» امرأة كنانة، وابنة عم لها، يقودهما «بلال» مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) من السيرة ٣/٣٥١ وتاريخ الطبرى ٣/٩٥، ١٧٨؛ والمحبر ٩٠، وعيون الأثر ٢/٣٠٧. وفى طبقات ابن سعد ٢/٧٧، والاستيعاب ٤/١٨٧١، والإصابة ٨/١٢٦: «كنانة ابن أبى الحقيق» ولعله من رفع النسب إلى جَدِّه.

(٢) تاريخ الطبرى: ٣/٩٥ والسيرة: ٣/٣٥١ - وانظر طبقات ابن سعد ٢/٨١. وترجمة محمود بن مسلمة الأنصارى وأخيه محمد بن مسلمة رضى الله عنهما فى القسم الأول من حرف الميم فى الإصابة.

ومر بهما «بلال» على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود، فهمَّت «صفية» أن تصيح، لكن الصيحة احتبست فى حلقها لا تنطلق.

وأما ابنة عمها فأعولت صارخة، وصَكَّتْ وجهها، وحثت التراب على رأسها..

وجىء بهما إلى رسول الله ﷺ.

«صفية» فى حزنها الصامت وقهرها المكبوت، تحاول أن تتماسك فى ترفع وكبرياء، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر، وإن بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة فى قومها.

والأخرى، شعثاء الشعر معفرة بالتراب، ممزقة الثياب، لا تكف عن عويل ونواح.

قال صلى الله عليه وسلم وهو يشيح بوجهه عنها:

«اغربوا عنى هذه الشيطانة»[1].

ثم دنا من صفية، وقد بدا عليها أنها راغبة فى أكثر من حماية النبى الفارس، فألقى عليها نظرة رحمة وهو يقول لبلال:

«أُنزعت يا بلال منك الرحمة حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»[2].

---

(١) تاريخ الطبرى: ٣/٩٤ - والسيرة ٣/٣٥٠، والإصابة ٨/١٢٦.

(٢) تاريخ الطبرى: ٣/٩٤ - والسيرة ٣/٣٥١، ٤/٢٥٦ والإصابة ٨/١٢٦ وانظر طبقات ابن سعد: ٢/٨١.

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فكان ذلك إعلامًا بأنه ﷺ قد اصطفاها لنفسه.

وكان المسلمون قد قالوا: ما ندرى أتزوجها أم اتخذها أم ولد، فلما حجبها عرفوا أنه ﷺ قد تزوجها.

وفى حديث عن «أنس رضى الله عنه» أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حيى، قال لها: «هل لك فىَّ؟ قالت: يا رسول الله.. قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك، فكيف إذا أمكننى الله منه فى الإسلام؟» فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها وكان عتقها صداقها[1].

«ودفعها ﷺ إلى أم سليم تهيئها له وتعتد عندها»[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/٨٤، والاستيعاب ٤/١٨٧٢، والإصابة ٨/١٢٦، والسمط الثمين: ١٢٠، وعيون الأثر ٢/٣٠٧ مع (الصحيحين. كتاب النكاح، باب فضية إعتاقه أمة ثم يتزوجها/اللؤلؤ والمرجان، ح ٩٠٠).

(٢) صحيح مسلم، ك النكاح: ح (٨٦/١٣٦٥).

رُؤيا العَروس وذكَرياتها

وانتظر ﷺ بخيبر حتى هدأت المناحة، وظن أن الروع قد ذهب من «صفية» أو كاد، فحملها وراءه وانطلق بها إلى المنزل فى أطراف خيبر - على بعد ستة أميال منها - فمال يريد أن يعرس بها، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل[1].

فوجدها ﷺ فى نفسه، وشق عليه تمنُّعها ورفضها، ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره فى الطريق إلى المدينة، فلما كان بالصهباء - بعيدا عن خيبر - نزل هناك يستريح، فبدا له أن «صفية» متهيئة للعرس «جهَّزتها له أم سُليم، فأهدتْها له من الليل»[2].

وظهرت «صفية» عروسا مجلوة، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول أم سنان الأسلمية: إنها لم تر بين النساء أضوأ منها[3].

ووراء جلوة الفرح المرتقب، غابت آثار الحزن والألم، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التى ألقت بأهلها صرعى مجندلين، وأخرجتها من حصن «القموص» ذليلة أسيرة، تساق بين السبايا!

وثمت أقيمت وليمة العرس: «أصبح النبى ﷺ فقال: من كان عنده شىء فليجئ به» وبسط نِطْعًا، فجعل الرجل يجىء بالتمر، وجعل الرجل يجىء بالسمن.. فكانت وليمة رسول الله ﷺ[4].

---

(١) السمط الثمين ١٢٠، والإصابة ٨/١٢٦.

(٢) من حديث أنس رضى الله عنه، المتفق عليه (اللؤلؤ والمرجان، ك النكاح: ح ٩٠٠).

(٣) الإصابة: ٨/١٢٦ مع طبقات ابن سعد (٨/١٢١).

(٤) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه (اللؤلؤ والمرجان، ك النكاح: ح ٩٠٠).

دخل، صلى الله عليه وسلم، على صفية وفى نفسه شىء من موقفها الأول. وأقبلت عليه فقالت: إنها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع، رأت فى المنام قمرًا وقع فى حِجْرها. فلما صحت من نومها قصت رؤياها على كنانة فقال غاضبًا:

«ما هذا إلا أنك تُمنين ملك الحجاز محمدا»[1] ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه.

ونظر، صلى الله عليه وسلم، إلى أثر اخضرارٍ فى عينها، وقد سرّه ما سمع من حديثها. وهمَّ بأن يقبل عليها لكنه أمسك وسأل:

«ما حملك على الامتناع أولاً؟» أو قال: «ما حملك على إبائك فى المنزل الأول؟»

أجابت العروس من فورها: «خشيتُ عليك قربَ اليهود».

فزال ما كان يجد فى نفسه من جفوة.

وتسترجع العروس ذكرياتٍ لها عن إرهاص قومها اليهود بنبى منتظر يعرفونه من أسفارهم، ثم غيظهم يوم استقبلت يثرب النبى المهاجر الذى طالما بشرت يهود بقرب مبعثه، تستغل البشرى لمآرب مادية، ولتفاخر بها على العرب الأميين.

تقول صفية بنت حيى بن أخطب:

«كنت أَحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع

(١) السيرة ٣/ ٣٥٠ وتاريخ الطبرى ٣/ ٩٤، وبلفظ «ملك يثرب»، فى حديث ابن عمر، رضى الله عنهما، عند الطبرانى «ورجاله رجال الصحيح» (مجمع الزوائد ٩/ ٢٥١) وفى رواية بالإصابة لابن إسحاق، رواية يونس بن بكير، أنها قصت رؤياها على أمها. وفى عيون الأثر أنها قصتها على أبيها.

ولدهما إلا أخذانى دونه. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، غدا عليه أبى وعمى مُغلِّسيْن فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. فأتيا كـالَّيْن سـاقطين يمشيـان الهوَينى، فهششت إليهـما كما كنت أصنـع، فوالله ما التفت إلىَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم. وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى: أهو هو؟

«قال: نعم والله. قال عمى: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما فى نفسك منه؟ أجاب: عداوته والله ما بقيت»[1].

وهناك خارج القبة التى دخل فيها المصطفى على صفية، بات رجل من الأنصار، هو «أبو أيوب خالد بن زيد» يقظان ساهرًا، متوشحًا سيفه، يطيف بالقبة على غير علم من المصطفى، فلما أصبح ﷺ سمع حركته ورأى مكانه فسأله:

«مالك يا أبا أيوب؟»

أجاب: «يا رسول الله، خفتُ عليك من هذه المرأة، قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفرٍ، فخفتُها عليك».

فيقال: إن الرسول دعا له قائلًا:

«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى».

أو قال: «رحمك الله يا أبا أيوب» مرتين[2].

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد، تلك الفعلة الآثمة لامرأة من يهود

---

(١) السيرة ٢/١٦٥ ووفاء الوفا ١/٢٧٠.

(٢) السيرة ٣/٢٥٤ - وطبقات ابن سعد: ٢/٨٤.

خيبر، هى «زينب بنت الحارث» امرأة سَلَام بن مِشْكَم، أحد زعمائهم القواد.

دخلت «زينب» على النبى ﷺ وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر، فأهدت إليه شاة مسمومة، وكانت قد سألت بعض أصحابه: أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله؟ قيل لها: الذراع. فأكثرت السم فى الذراع حتى سرى منها إلى سائر الشاة.

ووضعتها بين يديه ﷺ ومعه صاحبه «بشر بن البراء»، فتناول ﷺ الذراع، وأعطى صاحبه «ابن البراء» قطعة أخرى أكلها غير مستريب.

لكن النبى ﷺ لم يسغ الذراع، بل لفظها وهو يقول: «إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم».

ودعا بامرأة سلام، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة. ولما سألها ﷺ عما حملها على ذلك ردَّتْ:

«بلغتَ من قومى ما لا يخفى عليك، فقلتُ: إن كان نبيًّا فسيُخبَر، وإن كان ملكًا استرحت منه». فتجاوز عنها.

ومات «بشر بن البراء» من أكلته التى أكل...[1]

فلعل «أبا أيوب الأنصارى» ذكر هذه الفعلة اليهودية، حين بات

---

(١) السيرة ٣٥٢/٣، وتاريخ الطبرى ٩٥/٣.

وأخرجه مسلم، بلفظ مقارب، من حديث أنس رضى الله عنه (باب السم ح ٢١٩٠) وروى ابن سعد حديث الشاة المسمومة التى أهديت إلى الرسول ﷺ يوم فتح خيبر، عن أبى هريرة... وفيه أن الذين سموها وأهدوها، جماعة من اليهود (٨٤/٢).

ساهرًا حول القبة التى دخل فيها ﷺ على «صفية» عقيلة بنى النضير.

* * *

وبلغ الركب المدينة. وفى حديث أنس رضى الله عنه قال: «فعثرت الناقة العضباء، وَنَدَرتْ (صفيةَ) فقام ﷺ فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أَبْعَدَ اللَّهُ اليهودية»[١].

وآثر المصطفى ﷺ ألّا يدخل بالعروس على نسائه، «وقد خرجت جواريهن يتراءينها ويشمتن بصرعتها»[٢]، فأنزلها فى بيت لصاحبه «حارثة بن النعمان الأنصارى».

وتسامعت نساء الأنصار بها، فجئن ينظرن إلى جمالها، ولمح ﷺ زوجته «عائشة» تخرج متنقبة على حذر، فتتبع خطواتها من بعيد، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان.

وانتظر حتى خرجت، فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكًا:

«كيف رأيت يا شقيراء؟»

فأجفلت عائشة، وقد هاجت غيرتها، ثم هزت كتفها وهى تجيب:

«رأيت يهودية!» زادت فى رواية: «بين يهوديات».

ورد عليها النبى ﷺ:

«لا تقولى ذلك، فإنها أسلمت وحسن إسلامها»[٣].

(١-٢) صحيح مسلم ٢/١٠٤٨: ح (١٣٦٥).

(٣) ابن سعد فى طبقاته، وابن حجر - من طريقه - فى الإصابة، والسمط ٨٠.

ولم تعلق «عائشة» بكلمة، بل سارت إلى البيت حيث كانت حفصة فى انتظارها، مشوقة إلى أن تسمع رأيها فى العروس.

ولم تنكر «عائشة» أنها جميلة حقًّا، ولعلها زادت فحدثت «حفصة» عما كان من تتبّع المصطفى لها وحواره معها.

وأسند الواقدى عن أم سنان الأسلمية، قالت: لما نزلنا المدينة - بعد خيبر - لم ندخل منازلنا حتى دخلنا على صفية منزلها. وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار فدخلن عليها متنكرات، فرأيت أربعًا من أزواج النبى ﷺ منقبات: زينب بنت جحش، وحفصة، وعائشة، وجويرية، فأسمع زينب تقول لجويرية: ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول الله ﷺ. فقالت جويرية: كلا، إنها من نساء قلما يحظين عند الأزواج»[1].

* * *

(١) طبقات ابن سعد: ٨/٩٥.

زوجى محمّد، وأبى هَارُونُ، وعمّى موسَىٰ

ثم انتقلت «صفية» إلى دور النبى، فواجهتها هناك مشكلة محيرة: كانت عائشة ومعها حفصة وسودة فى جانب، والزوجات الأخريات فى جانب تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء، رضى الله عنهن.

وكان على «صفية» أن تختار، وإنه لموقف دقيق صعب، فما كانت فى ذكائها بالتى تناصب «الزوج الأثيرة» أو «أم أبيها» عداء أو شبه عداء!

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث، فقررت أن تتقرب من عائشة وحفصة والزهراء جميعًا!

وكان مظهر تقربها إلى ابنتى أبى بكر وعمر، إظهار استعدادها للانضمام إليهما... وأما «الزهراء» فأهدتها «صفية بنت حيى» حلية لها من ذهب، رمزًا لمودتها وإعلانًا لمسالمتها![1].

ولعل «صفية» أرادت أن تحتمى بهذا الموقف اللبق، مما كانت تخاف من تعريض بأصلها اليهودى، وتذكيرٍ بما بين قومها والإسلام من عداء مستحكم مرير.

وما كان لها، فى الحق، أن تخشى أذى من «الزهراء» فإنها - رضى الله عنها - كانت أحرص الناس على سلام، وأبر بأبيها من أن تشارك فى هذا الضجيج النسوى، اللهم إلا أن تدفع إلى شىء من ذلك دفعًا، كالذى أشرنا إليه من سفارتها لأزواج النبى عند أبيها ﷺ فى أمر السيدة عائشة.

---

(١) الإصابة جـ ١٢٧/٨.

ولعل صفية كانت فى مأمن كذلك، من جهة أم سلمة رضى الله عنها.

أسند الواقدى عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى، قال: «كان رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره ومعه فى ذلك السفر صفية بنت حيى وأم سلمة، فأقبل رسول الله ﷺ إلى هودج صفية وهو يظن أنه هودج أم سلمة - وكان ذلك اليوم يومها - فجعل يتحدث مع صفية فغارت أم سلمة، وعلم رسول الله ﷺ بعدُ أنها صفية، فجاء إلى أم سلمة فقالت: تتحدث مع ابنة اليهودى فى يومى؟ قالت: ثم ندمتُ على تلك المقالة، فكانت تستغفر منها - قالت: يا رسول الله، استغفر لى فإنما حملنى على ذلك الغيرة»[1].

وإنما الخوف كل الخوف من «عائشة» فى غيرتها الجامحة، وضِيقها بكل ضرة حسناء تدخل بيت المصطفى وتشاركها فيه!

ولم يعصم «صفية» مما كانت تخاف، تقربها من عائشة وحفصة، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرًا وتلميحًا بالدم اليهودى الذى يجرى فى عروقها؟ وما أكثر ما صكت أذنيها سهام جارحة، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن، فى ظلّ أكرم زوج! والذى آلم «صفية» أن عائشة وحفصة - اللتين انضمت إليهما - كانتا تشاركان الأخريات فى النيل منها، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات، وهى الأجنبية الدخيلة.

* * *

وبلغ «صفية» كلامٌ عن حفصة وعائشة، فلما حدثت به النبى عليه الصلاة والسلام وهى تبكى، قال:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/٩٥.

«ألا قلت: وكيف تكونان خيرًا منى، وزوجى محمد، وأبى هـارون، وعمى موسى؟»[١].

ونزل كلام النبى عليه الصلاة والسلام على «صفية» بردًا وسلامًا، وكان لها منه حمى وملاذ.

كان النبى ﷺ، يحسُّ غربة «صفية» فى دوره بين نسائه، فيدافع عنها كلما أتيحت له فرصة.

حدثوا أنه كان فى سفر ومعه «صفية» و«زينب بنت جحش» فاعتل بعير «صفية» وفى إبل زينب فضل، فقال لها:

«إن بعير صفية اعتل، فلو أعطيتها بعيرًا؟»

ردتْ فى ترفع وازدراء:

«أنا أعطى تلك اليهودية؟»

فولّى عنها مغضبًا، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها، أو قيل «فهجرها لذلك، ذا الحجة، والمحرم، وبعض صفر، ثم أتاها بعد، وعاد إلى ما كان عليه معها»[٢].

ولم تحرم «صفية» هذه الحمـاية حتى آخر أيامه ﷺ. رُوىَ أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول ﷺ فى مرضه الأخير، فقالت صفية: إنى والله يانبى الله، لوددت أن الذى بك بى. فما كان من أزواجه إلا أن غمزن ببصرهن، فما راعهن إلا أن قال ﷺ: «مَضْمِضْنَ»! تساءلن فى دهشة: من أى شىء؟

---

(١) الإصابة ١٢٧/٨ - والنقل منها - والاستيعاب: ١٨٧٢/٤ والسمط ١٢١.

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات من حديث السيدة عائشة، بسنده إليها. وابن حجر فى ترجمة صفية بالإصابة، من طريق ابن سعد.

قال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»[١].

* * *

ولحق المصطفى بالرفيق الأعلى، عز وجلّ. وافتقدت «صفية» تلك الحماية الكريمة، فما نسى الناس لها أنها من سلالة يهود، وما أنفوا من مهاجمتها من تلك الثغرة التى لم يكف لسدِّها حسنُ إسلام صفية، وزواجها رضى الله عنها من النبى ﷺ.

حدثوا أن جارية لها أتت «أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» فقالت: «يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السبت وتصل اليهود».

فبعث «عمر» إلى صفية يسألها عن ذلك فقالت:

«أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحما فأنا أصِلُها!»

ثم انثنت إلى جاريتها فسألتها عمَّا حملها على مثل ذلك.

قالت الجارية: «الشيطان!».

وردت «صفية»:

«اذهبى فأنت حرة»[٢].

* * *

واندفعت «صفية» راضية أو كارهة، تشارك فى المعركة السياسية التى بدأت فى عهد «عثمان» رضى الله عنه، وكان موقفها شبيهًا بموقفها بين

---

(١) ابن سعد فى الطبقات، بسند عن زيد بن أسلم. وابن حجر فى الإصابة، من طريقه.

(٢) رواه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ١٨٧٢/٤، وابن حجر فى الإصابة ١٢٧/٨ من طريقه والمحسب الطبرى فى السمط ١١٢.

عائشة والزهراء، فبالرغم من حرصها على مودة عائشة التى كانت حينذاك ذات نفوذ سياسى قوى، ومكانة فى الدولة الإسلامية رفيعة، لم تألُ «صفية» جهدًا فى الولاء لأمير المؤمنين «عثمان» قبل مقتله.

حدث مولى لصفية يدعى كنانة - وقيل هو ابن أخيها - قال:

«قدمتْ صفية، فى حجابها، على بغلة لترد عن عثمان، فلقينا الأشتر - هو النخعى - فضرب وجه البغلة، وهو لا يعرف راكبتها، فقالت لى صفية: رُدَّنى لا تفضحنى!

ثم وضعت معبرًا بين منزلها ومنزل عثمان، فكانت تنقل إليه الطعام والماء، وهو فى محنة الحصار»[1].

* * *

وماتت «صفية» حوالى سنة خمسين، والأمر مستقر لمعاوية...

ودفنت بالبقيع، مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

حديثها عن رسول الله ﷺ مخرج فى الكتب الستة، ومن الذين رووا عنها: ابن أخيها ومولاها كنانة، ومولاها الآخر يزيد بن متعب، والإمام زين العابدين على بن الحسين، ومسلم بن صفوان، فى عدد من حفاظ التابعين رضى الله عنها وعنهم.

* * *

(١) ابن سعد فى الطبقات. حكاه ابن حجر فى آخر ترجمتها بالإصابة.

(١٠)

أمّ حَبِيبَة
بنت أبي سُفيان

«ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته «أم حبيبة»... فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه»

(ابن إسحاق: السيرة النبوية)

عودة المهَاجرة

رجع النبى ﷺ إلى مدينته، وقد تمَّ له النصر فى «خيبر»، وتزوج عقيلة بنى النضير، وسيقت بين يديه غنائم اليهود.

وتأهبت «المدينة» للقائه، وقد أعدت له أسعد مفاجأة ترضيه:

فهناك فى «المدينة» وهو ﷺ غائب فى خيبر، كان مهاجرة الحبشة قد جاءوا فى صحبة «عمرو بن أمية الضمرى» الذى بعثه النبى ﷺ إلى «النجاشى» ليعود بمن بقى فى بلاده من المهاجرين الأولين[1].

وحملهم «عمرو» فى سفينتين، فبلغ بهم «المدينة» حيث الأهل والأنصار، وموقعة «خيبر» إذ ذاك فى ذروة احتدامها.

وأعقب وصولَهم إعلانُ فتح «خيبر» والنصر المبين على يهودها، وخرج أهل «المدينة» لاستقبال العسكر المنتصر، فضاقت بهم أرجاء الوادى، وقد بُحَّتْ أصواتهم من هتاف ودعاء.

وأهلَّ عليهم ﷺ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من «مكة» أيام الاضطهاد والعذاب، أولئك الذين كان آخر عهده بهم، يوم تسللوا من «مكة» أيام المحنة، خارجين من ديارهم وأموالهم فى سبيل الله، وأقصى ما يتمناه أحدهم أن يموت على الإسلام غريبًا مهاجرًا فتكون له الجنة.

---

(١) السيرة: ٣/٤، والطبرى: ٨٩/٣.

وكانوا رضى الله عنهم قد تواعدوا على اللقاء فى الدار الآخرة، حيث النعيم الذى وُعد به المؤمنون، وها هم أولاء يلتقون فى أرض الوطن، يوم الاحتفال بفتح خيبر، وقد صارت للإسلام الكلمة العليا فى جزيرة العرب!

ووثب رسول الله ﷺ من فوق راحلته، فالتزم ابن عمه «جعفر ابن أبى طالب» معانقًا، وقبل عينيه وهو يقول فى غبطة:

«ما أدرى بأيهما أنا أَسَرُّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»[١].

والتفت ﷺ بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين وقد كانوا فيما أحصى «ابن إسحاق» ستة عشر رجلًا[٢].

من المهاجرات العائدات، كانت «أم حبيبة، بنت أبى سفيان بن حرب» تنتظر النبى ﷺ، ليحملها إلى بيته!

وقد مضى على زواجه بها بضع سنين، مذ كانت فى مهاجرها بالحبشة. فلنمض مع الأحداث، راجعين بها إلى بدايتها هنالك...

(٢،١) السيرة: ٣/٤، ٥ وتاريخ الطبرى: ٩٠/٣.

محنَة فى الغربة

كانت «رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية» زعيم مكة وقائد المشركين، زوجـة لابن عمّة المصـطفى ؛ «عبيد الله بن جحش الأسدى، أخى السيدة زينب أم المؤمنين» وقد أسلم عبيد الله وأسلمت معه «رملة»، وأبوها «أبو سفيان» على الكفر. وكذلك أمها: صفية بنت أبى العاص الأموية.

وخشيت أذى أبيها، فهاجرت بدينها مع زوجها فى الهجرة الثانية إلى الحبشة وهى مثقلة بحملها، وتركت أباها «بمكة» وقد جن غيظه وقهره، أن أسلمت ابنته وليس له إليها سبيل.

وهناك فى الحبشة، وضعت «رملة» بنتها «حبيبة بنت عبيد الله» التى كنيت بها فصارت تدعى «أم حبيبة».

وإذ هى فى غربتها تكتم حنينها إلى الديار، وتحاول أن تجد فى زوجها عوضًا عمن فارقت من أهل وعشيرة، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة، فقد روعت فى الحلم برؤية «عبيد الله» بأسوأ صورة، فأصبحت فإذا هو قد ارتد عن دينه الذى من أجله هاجر إلى الحبشة، ودخل «النصرانية» دين الأحباش...

وحاول أن يردها عن دين الإسلام فصبرت على دينها[1].

---

(١) ابن سعد فى الطبقات، ٩٦/٨ والمحبر: ٨٨، والاستيعاب ١٨٤٤، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة ٨٤/٨، عنه. والسمط ٩٦.

وكادت «بنت أبى سفيان» تهلك غمًّا وأسى وحسرة:

فيم كانت هجرة عبيد الله إذن، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب، وقسوة التنكر للآباء والأجداد، وهذا هو يرتد عن الإسلام الذى من أجله احتملت «رملة» كل ذلك، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم؟

لقد كان أكرم لعبيد الله، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته دفاعًا عن عبادة وجدوا آباءهم عليها من قديم الحقب.

فأما أن يكفر بهذا كله، ويرضى بالإسلام دينا ليجيء إلى الحبشة فيكفر بالدين، ويستبدل به دينا غريبًا لقوم غرباء، فى يُسرٍ ودون تحرج، كما يبدل ثوبًا بثوب، فأية مهانة وأى عار!

وهذه الابنة الحبيبة، ما ذنبها لكى تولد لمثل هذا الأب الصابئ المرتد؟ ما جريرتها لتخرج إلى الحياة فى أرض غريبة، وقد انبتَّ ما بين أبويها وتمزق شمل ذويها، وتوزعت أهلَها مِلَلٌ شتى: فأبوها نصرانى، وأمها مسلمة، وجدها مشرك عدو الإسلام!

واعتزلت «رملة» الناس شاعرة بالخزى لفعلة الرجل الذى كان لها زوجًا، ولطفلتها والدًا..

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها «حبيبة» مضاعفة الغربة، لا تريد أن تلقى الناس فى دار هجرتها، ولا سبيل لها إلى أرض الحجاز، وهناك أبوها يعلن حربًا شعواء على النبى الذى صدقته وآمنت به صلى الله عليه وسلم.

وأين تراها تقيم فى «مكة» لو عادت؟

أفى بيت أبويها المشركَيْن، وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت؟

أم فى دار «آل جحش» رهط زوجها، وقد أقفرت بهجرة أهلها وصارت منهم خلاء؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن عتبة بن أبى ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة، مروا بدار بنى جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابًا ليس فيها ساكن، ثم تنفس الصعداء وقال:

وكلُّ دارٍ وإن طالت سلامتُها يومًا ستدركها النوباءُ والحُوب!

أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها.

فقال أبو جهل: «وما تبكى عليه؟»... ثم قال:

«هذا عمل ابن أخى، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا»[1].

كلا، لا سبيل لرملة إلى «مكة» والمعركة على أشدّها بين أبيها والنبى ﷺ، ودار بنى جحش خلاء تخفق أبوابها يبابا!

* * *

(١) السيرة: ٢/١١٥.

رسالة من الحجاز

ومرت فترة من الزمن وهى فى عزلتها الحزينة، فما شعرت ذات يوم إلا وطرقات تلح على بابها الموصد، مستأذنة لجارية من جوارى النجاشى...

وفتحت «أم حبيبة» الباب، فدخلت الجارية وأدت إليها رسالة النجاشى:

«إن الملك يقول لك: وكِّلى مَن يزوجك من نبى العرب، فقد أرسل إليه ليخطبك له».

واستعادت «رملة» حديث الجارية مرتين وثلاثًا، حتى إذا استيقنت من البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتها إليها حلاوة البشرى. ثم أرسلت إلى «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس» - كبير المهاجرين من قومها بنى أمية - فوكلته فى زواجها[1].

وفى المساء، دعا النجاشى إليه مَن بالحبشة من المسلمين، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبى طالب، ابن عم النبى ﷺ، وخالد بن سعيد، وكيل رملة..

وتكلم النجاشى وترجم المترجم:

---

(١) أخرجه ابن سعد من حديث أم حبيبة رضى الله عنها. وحكاه ابن حجر فى ترجمة «رملة» بالإصابة ٨/٨٤. وفى رواية للزبير بن بكار: زوجها إياه عثمان بن عفان. وهى رواية مرجوحة (الاستيعاب).

«إن محمد بن عبد الله كتب لى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، فمن أولاكم بها؟»

أجاب القوم: «خالد بن سعيد، قد وكَّلتْه».

فاتجه إليه النجاشى قائلاً:

«فزوّجْها من نبيكم، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار» - وقيل: أربعة آلاف - فقام خالد وقال:

«وقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته أم حبيبة»...

وقبض الصداق.

وأولم لهم النجاشى وليمة الزواج قائلاً: «اجلسوا، فإن سنّة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزوج»[1].

ثم أتوا «أم حبيبة» مهنئين مباركين. «وأولم عليها عثمان بن عفان لحمًا وثريدًا».

وباتت بنت أبى سفيان، وهى «أم المؤمنين»!

وأصبحت فجاءتها «جارية النجاشى» تحمل إليها هدايا نساء الملك من عُودٍ وعنبر وطيب، فقدمت إليها «أم المؤمنين» خمسين دينارًا من صداقها قائلة:

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر: ٤/١٩٣٠ والمحبر ٨٨، والإصابة ٨/٨٤. وفى رواية بها، أن الذى زوّجها: عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية. وهو خال رملة، أخو أمها «صفية بنت أبى العاص بن أمية. ولعله الذى زفها إلى النبى ﷺ، بعد هجرتها من الحبشة إلى المدينة. والله أعلم.

«كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شىء من المال، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا».

فأبت أن تمسَّ الدنانير، وردَّت السوارين وهى تقول: إن الملك أجزل لها العطاء، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئًا، كما أمر نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب.

وتقبلت «أم حبيبة» الهدية شاكرة، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبى، فكان عليه الصلاة والسلام يرى عندها طيب الحبشة وعُودَها فلا ينكره.

* * *

بين الأب والزوج

احتفلت «المدينة» بدخول بنت أبى سفيان بيت النبى ﷺ.

وأولم خالُها «عثمان بن عفان» وليمة حافلة، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم، وباتت «مكة» ساهدة مؤرقة، تردد قول زعيمها أبى سفيان والد أم حبيبة، حين بلغه نبأ زواجها:

«هذا الفحل لا يُجدع أنفه!»[1].

ولم يكن قد مضى على زواجه، ﷺ، من عقيلة بنى النضير، غير أيام معدودات!

واستقبلت نساء النبى زميلتهن «أم حبيبة» بشىء من المجاملة، ولم ترَ «عائشة» فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها؛ إذ كانت «رملة» تدنو من عامها الأربعين، وليس لها سحر صفية، ولا ملاحة جويرية، ولا حسن أم سلمة، ولا جمال زينب...

وأبدت «عائشة» استعدادها لقبول الزوجة الجديدة فى صفّها، لكن «بنت أبى سفيان» أنفت أن تكون تابعة لأخرى...

وبقدر ما أنكرت «عائشة» ألا تسارع «رملة» إلى كسب رضاها كما فعلت «حفصة بنت عمر»، أنكرتْ «بنت أبى سفيان» على «عائشة» الزهو الطامح إلى الاستئثار بالنفوذ فى بيت النبى ﷺ...

(١) طبقات ابن سعد ٨/٩٩، وتاريخ الطبرى ٣/٩٠، والسمط ٩٩، والاستيعاب والإصابة. ومعها نسب قريش ١٢٢.

لكن الجفوة بينهما لم تشتد إلى درجة الخصومة السافرة المعلنة، وإن بقيت «عائشة» تهاب «رملة» وتخشى وقوفها فى سبيل ما تبغى من تفرد بالكلمة العليا بين ضرائرها!

وكانت «رملة» بحيث تفعل ما تخشاه «عائشة» لولا أن ظلت تحس فى أعماقها حزنًا قاسيًا لأن أباها لا يزال على الوثنية الكافرة.

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة، تأكل من رجال أعزة عليها، فما من قتيل إلّا وهو من شيعة أبيها، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها، أبنائها المؤمنين رضى الله عنهم.

* * *

وبلغها يومًا أن قريشًا نقضت عهد «الحديبية» وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها ﷺ وسيرته، أنه لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يُغدَر به أو ينقض له عهد، فهل تراه يغزو «مكة» ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين وفيهم أبوها، وإخوتها، وأكثر أهلها وعشيرتها؟ كذلك لاحت نذر الخطر فى «مكة» فاجتمع قادتها يتشاورون فى أمر «محمد» الذى يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به. لقد كانوا من قبل يستهينون به وبمن اتبعه، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ، وصار له السلطان الأكبر فى بلاد العرب؟

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولاً منهم إلى المدينة يفاوض محمدًا ﷺ فى تجديد الهدنة ومدِّ أجلها عشر سنين، ولكن من يكون رسولهم؟

أبو سفيان بن حرب، ولا أحد سواه!

على هذا أجمعوا أمرهم، ولم يستطع «أبو سفيان» إلا أن يذعن. وأنّى له أن يعتذر وهو الذى أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات

أكباد مكة... فلْيَصْلَ اليومَ حرَّها، ولْيمض إلى «محمد» خصمه الألد، يسأله الموادعة والمسالمة!

وخرج «أبو سفيان» من مكة مكرها يريد المدينة. فلما بلغها أشفق من لقاء «محمد» وذكر أن له ابنة هناك فى بيت خصمه، فتسلل إليها يستعين بها على ما جاء من أجله.

وفوجئت به «أم المؤمنين» يدخل بيتها، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت إلى الحبشة، فوقفت تجاهه بادية الحيرة، لا تدرى ماذا تفعل أو ماذا تقول... وأدرك «أبو سفيان» ما تعانيه ابنته، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، فما راعه إلا أن وثبت «رملة» فاختطفت الفراش وطوته فى إعزاز، ثم وقفت تلهث.

سألها وهو يلوذ بالصبر:

«أطويته يا بنية رغبة بى عن الفراش، أم رغبة بالفراش عنى؟»

وجاءه ردُّها:

«هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه!»

قال والألم يفرى كبده: «لقد أصابك يا بنية بعدى شر»[1].

وانصرف مقهورًا...

واستندت هى على جدار بيتها، عصية الدمع، معطلة الحواس.

حتى جاء رسول الله عليه الصلاة والسلام فعرفتْ ما كان من أمر «أبى سفيان».

---

(١) السيرة: ٣٨/٤، وابن سعد فى الطبقات: ١٠٠/٨ والإصابة، عنه.

ذهب إلى النبى ﷺ فكلمه فى العهد فلم يجبه بشىء..[١].

فتوسل بأبى بكر إلى الرسول لكن أبا بكر رفض..

فكلم «عمر بن الخطاب» فرد عليه فى غلظة وجفاء:

«أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم يكن إلا الذَّرُّ لجاهدتكم به».

ومضى أبو سفيان إلى بيت «على بن أبى طالب» وعنده فاطمة بنت رسول الله، وولدها الحسن يدب بين يديها، فقال: «يا علىّ، إنك أَمَسُّ القوم بى رَحِمًا، وإنى قد جئت فى حاجة... فاشفع لى إلى محمد».

ردَّ «علىّ»:

«ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه».

فالتفتْ أبو سفيان إلى السيدة فاطمة وسألها متوسلاً:

«يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟»

ردَّتْ رضى الله عنها:

«والله ما بلغ بُنىَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٢].

---

(١) السيرة: ٣٨/٤، وتاريخ الطبرى: ١١٢/٣ والسمط الثمين: ص ١٠٠.

(٢) تاريخ الطبرى: ١١٢/٣.

وإذ سدت السبل فى وجهه، التمس نصيحة «علىّ بن أبى طالب» فقال كرم الله وجهه:

«والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا، لكنك سيد بنى كنانة. فقم فأَجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك. وما أظن ذلك مغنيًا، ولكنى لا أجد لك غيره»[١].

فذهب «أبو سفيان» إلى المسجد، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس، ثم أسرع إلى راحلته وانطلق بها يعدو فى طريق مكة، كأنه يفر من مطارد...

* * *

سمعت «أم المؤمنين» ما جرى لأبيها، فما زادت على أن دعت لزوجها ﷺ بالنصر، وقد رأته يتخذ أهبته للمعركة الفاصلة فى البلد الحرام.

ولعل نساء النبى راقبنها وهى فى موقفها ذاك الدقيق الحرج، ترى جيش المدينة يتأهب لأخذ قومها على غرة، ومكة لاتزال فى حيرة من الأمر، تستمع إلى ما كان من أمر أبى سفيان الذى رجع من وفادته خائبًا على غير قرار، يقول: «جئت محمدًا فوالله ما رَدَّ علىَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو»[٢].

---

(١) السيرة: ٣٨/٤ - وتاريخ الطبرى: ١١٢/٣.

(٢) السيرة: ٣٩/٤، وتاريخ الطبرى: ١١٣/٣.

كان الموقف صعبًا بالغ الصعوبة، دقيقًا أشد الدقة، فانتصار محمد ﷺ يعنى القضاء على أبيها وعشيرتها، وإن «أم المؤمنين» لتناصب قومها العداء، وتبرأ منهم إلى الله ورسوله، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سِيطَتْ به؟... وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذى ينتظرهم؟! كلا، بل إن عنَتَهم عزيز عليها، مثلما هو عزيز على رسول الله ﷺ.

وإذ هى فى حيرتها المضنية لاح لها شعاع من الأمل:

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان كما أسلم عمر بن الخطاب، وأخوها معاوية، وخالد بن الوليد، وأبو العاص بن الربيع، زوج السيدة زينب كبرى بنات النبى ﷺ؟..

إنه لأمل واه، أقرب إلى أن يكون سرابًا، ولكنها تعلقت به ليعصمها من الحيرة والجزع فتوجهت إلى السماء، تدعو الله أن يهدى أبا سفيان إلى الإسلام!

وأحست طمأنينة وسلامًا، فتلت ما نزل من آى الكتاب الكريم حين تزوجها محمد رسول الله ﷺ:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

وكان هذا غاية ما تملك «أم المؤمنين، بنت أبى سفيان» لأبيها وأهلها..

على حين بلغ الجزع برجل من الصحابة البدريين، أن بعث كتابًا مع

(١) السمط الثمين: ١١٠ - والآية من سورة الممتحنة «٧».

امرأة من «مكة» تدعى «سارة» ووعدها مكافأة سخية إذا هى أبلغت كتابه قريشًا، ليعلموا الخطر الذى يوشك أن يدهمهم.

وعلم النبى ﷺ بكتاب صاحبه «حاطب بن أبى بلتعة» فبعث علىّ ابن أبى طالب والزبير بن العوام، فأدركا «سارة» وما زالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها.

ودعا النبى إليه صاحبه، فسأله عما حمله على ذلك. قال حاطب:

«يا رسول الله، أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله، ما غيرتُ ولا بدلت، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم».

فوثب به «عمر بن الخطاب» واستأذن النبىَّ عليه الصلاة والسلام فى أن يضرب عنقه، لكنه ﷺ حال دونه؛ إذ كان أحد أصحاب «بدر»[1].

وإنما جئت بحديث «حاطب» هنا، لنقدر صعوبة الموقف على «أم المؤمنين بنت أبى سفيان» حين رأت زوجها عليه الصلاة والسلام وهو خارج فى عشرة آلاف مقاتل يريد «مكة»

وتم الفتح..

وطارت البشرى إلى «المدينة» بما أفاء الله على رسوله من نصر. ورددت دور المدينة ما كان من لقاء النبى ﷺ بأبى سفيان الذى أرسلته مكة حين رأت نيران الغسكر الغازى تتوهج قريبًا منها، ليستطلع لها أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام. وعرف «العباس بن عبد المطلب» أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر:

---

(١) السيرة: ٤/٤٠ - والإصابة: حاطب بن أبى بلتعة.

– ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ فى الناس، واصباحَ قريش إذا دخل مكة عنوة! فأسلم ثكلتْك أمُّك وعشيرتك[١].

قال أبو سفيان: فما الحيلة، فداك أبى وأمى؟

فأردفه العباس وراءه وسار به خلال المعسكر، مارًّا بعشرة آلافٍ أوقدوا نيرانهم تلقى الرعب فى قلوب المشركين.

فلما مرَّا بنار «عمر بن الخطاب»، عرف رضى الله عنه أبا سفيان فأسرع إلى خيمة النبى ﷺ يستأذن فى ضرب عنقه. وجاء العباس على أثره فقال: إنى يا رسول الله قد أجرته.

وأمسك القوم أنفاسهم، حتى سمعوا كلمة النبى ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رَحلِك، فإذا أصبحتَ فائتنى به».

وقضى أبو سفيان ليلته مؤرقًا يترقب حكم «محمد بن عبد الله» فى قريش.

فلما كان الصبح جىء بأبى سفيان إلى حضرة النبى ﷺ، وفى مجلسه كبار المهاجرين والأنصار[٢].

وتكلم النبى عليه الصلاة والسلام قال:

«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟»

قال: «بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى شيئًا بعدُ!»

---

(١) ابن إسحاق السيرة: ٤/٤٥ – والنقل منها، مقابلا على صحيح البخارى، ك المغازى، مع (فتح البارى ٨/٤) وتاريخ الطبرى: ٣/٤٠ – وطبقات ابن سعد: ٢/٩٨.

(٢) السيرة: ٤/٤٥ – وتاريخ الطبرى: ٣/٤٠.

قال النبى صلى الله عليه وسلم:

«ويحك يا أبا سفيان: ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنى رسول الله؟»

قال «أبو رملة»:

«بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه، فوالله إن فى النفس منها حتى الآن شيئًا!»

ولكن «أبا سفيان» ما لبث أن أعلن إسلامه..

فالتمس «العباس» من النبى ﷺ أن يكرم الرجل بشىء يتألفه به، فأجاب النبى الكريم:

«نعم... من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»[1].

وبعث أبو سفيان من نادى فى مكة:

«من دخل دار أبى سفيان فهو آمن...»

فما زالت أصداء الهتاف تُرجَّع فى الأفق حتى بلغت سمع «أم حبيبة» فهتفت وقد هزها الفرح:

«من دخل دار أبِى فهو آمن!»

ألا ما أكرم زوجها الرسول، وما أحلمه، وما أنبله، وما أوصله!

وسجدت لله شاكرة...

---

(١) السيرة: ٤٦/٤ - وتاريخ الطبرى: ١١٧/٣، وطبقات ابن سعد: ٩٨/٢.

وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة، وحفصة، وكل نساء النبى ﷺ...

* * *

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها «عائشة»، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وشطط..

وظلت ما عاشت، تتصدى لها كلما أسرفت فى غلوائها، أو اشتطت فى اعتدادها بمكانتها.

حتى إذا حان الرحيل، دعت إليها «عائشة بنت أبى بكر» فقالت لها وهى تحتضر:

«قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فتحللينى من ذلك؟»

أو قالت: «قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك».

فحللتها عائشة واستغفرت لها، فأضاء وجهها الشاحب بنور الرضا وهمست:

«سررتنى سرَّك الله».

وفعلت مثل ذلك مع «أم سلمة بنت زاد الركب»[1].

ثم رقدت بسلام، وأُودع جثمانُها ثرى البقيع الطيب، فى المدينة المنورة فى سنة أربع وأربعين على الأرجح.

---

(١) أسنده ابن سعد من حديث عائشة رضى الله عنها فى الطبقات ٨/١٠٠، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة، من طريق ابن سعد، والسمط: ١٠١.

لها رضى الله عنها فى الكتب الستة خمسة وستون حديثًا، روت عنها بنتها حبيبة ربيبة رسول الله ﷺ، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبى سفيان، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة، وعروة بن هشام بن المغيرة، وأبو صالح السمّان، وزينب بنت أبى سلمة، ربيبة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم[1].

* * *

(١) الإصابة ٨/٨٥ ، وتهذيب التهذيب ١٢/٤١٩.

(١١)

ميمونة بنت الحارث
آخِرُ أُمَّهات المؤمنين

«ذهبت والله ميمونة... أما إنها واللَّهِ كانت
من أتقانا وأوصلِنا للرحم»

عائشة بنت أبي بكر
(الإصابة: ١٩٢/٨)

الأخوات مؤمنات

لم يكن هنالك شيء يشغل المسلمين بعد فتح «خيبر» وعودة بقية المهاجرين من الحبشة، مثل التفكير فيما نص عليه «عهد الحديبية» الذى عقد فى ذى القعدة سنة ست، من أن «يعود محمد وأصحابه إلى مكة فى العام الذى يليه، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قِرَبِها، ولا شيء غيرها»[1].

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة إلى «أم القرى» ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا إلى ديارهم، فطافوا بالبيت العتيق ثم مَلَئُوا عيونهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد.

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذى جُعِلَ مثابة للناس وأمنا، يأتون إليه من كل فج عميق.

فلما سعوا إليه فى العام السادس للهجرة معتمرين مسالمين وصاروا على مرحلة من «مكة»، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام، وإن قبلوا أخيرًا أن يتركوا المسلمين يعودون إليه فى قابل...

ومرت الأيام بطيئة والليالى طويلات، حتى استدار العام، ونادى النبى ﷺ فى الناس كى يتجهزوا للخروج إلى مكة.

* * *

(١) انظر نص العهد فى المتفق عليه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه فى (اللؤلؤ والمرجان: ك الجهاد، الحديبية).

وركب ناقته «القصواء» وتبعه ألفا راكب من المهاجرين والأنصار يتلهفون شوقًا إلى أقدم بيت عُبد الله فيه، وحرصًا على السعى إلى مثابة حجهم ومهوى أفئدتهم.

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة، للقرية المباركة: مهد النبى الهاشمى ومنزل الوحى.

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم بالوعد الصادق، وأمامهم «عبد الله ابن رواحة الأنصارى» رضى الله عنه، آخذا بخطام «القصواء» ينشد حاديًا:[1]

خلُّوا بنى الكفارِ عن سبيلهِ
خلُّوا، فكلُّ الخير فى رسوله
...
يـــاربِّ إنى مؤمنٌ بقِيـله
أعرف حقَّ اللَّهِ فى قبولِه

حتى دخلوا مكة، آمنين محلقين رءوسهم ومقصِّرين لا يخافون، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد.

وصدق الوعد الحق:

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2]

---

(١) ابن إسحاق فى السيرة: ١٣/٤، وابن سعد فى الطبقات ٨٨/٢، وتخريجه فى (فتح البارى: ٣٥١/٧).

(٢) آية ٢٧: سورة الفتح.

وهتفوا فى صوت واحد ملبين:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك».

فتجاوبت أرجاء «مكة» بالهتاف المؤمن، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام، وأحسوا كأن الجبال الشمّ الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم:

«لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

فما بقى مكىّ إلا وقد أيقن يومئذ أن يوم النصر الأكبر للمؤمنين جد قريب..

وكان للمشهد المهيب أثره فى مكة وأهلها.

فإذا سيدة من أكرم سيدات مكة ترنو إلى الركب النبوى وغاية أمانيها أن تغدو أمًّا للمؤمنين.

تلك كانت «برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية» إحدى الأخوات التى قال فيهن رسول الله ﷺ: «الأخوات مؤمنات»[1].

شقيقتها «أم الفضل» لبابة الكبرى بنت الحارث، زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه، وأول امرأة آمنت بعد خديجة عليها السلام.

وأخوات برة لأمها:

---

(١) انظرهن فى الطبقات الكبرى ٢٤٩/٨ ومجمع الزوائد: ك المناقب ٢٤٩/٩.

«أسماء بنت عميس الخثعمية» زوج جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين، أم ابنه عبد الله، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدًا، وخلف عليها الإمام علىّ بن أبى طالب فولدت له يحيى، رضى الله عنهم .

و«سلمى بنت عميس» زوج حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وشهيد أُحد، وأم بنته «أمامة» التى زوجها المصطفى ﷺ ربيبه سلمة. وأختهن لأمهن، زينب بنت خزيمة العامرية أم المساكين وأم المؤمنين. أمُّهن جميعًا هند بنتُ عوف بن زهير بن الحارث، التى كان يقال فيها: «أكرم عجوز فى الأرض أصهارًا هند بنت عوف: أصهارها، رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما، وجعفر وعلى ابنا أبى طالب رضى الله عنهما».

وكان لهند غير هؤلاء، أصهار آخرون من ذوى المكانة: الوليد بن المغيرة المخزومى، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث، أم خالد. وأبىّ بن خلف الجمحى، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث، أم أبان، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالى، زوج عزة بنت الحارث.

ولبابة، وعصماء، وعزة، بنات الحارث، شقيقات لبرة[1].

كانت «برة» وقتئذ أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامرى[2].

---

(١) انظر مع طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (ميمونة بنت الحارث): السيرة ١٩٦/٤، والمحبر ١٠٧، وجمهرة الأنساب لابن حزم ٢٦٢، وعيون الأثر ٣٠٨/٢ والسمط الثمين ١١٣.

(٢) هذه رواية ابن إسحاق فى السيرة ١٩٦/٤ - والاستيعاب. قابل على تاريخ الطبرى: ١٧٨/٣ - والاستيعاب، والإصابة والسمط الثمين ١١٥.

وكانت «برة» قد جعلت أمرها إلى شقيقتها «أم الفضل» فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس، وجعلت له أمرها فأنكحها النبى ﷺ وليًّا عنها وأصدقها عنه أربعمائة درهم، وسماها ﷺ «ميمونة».

وفى رواية عن الزهرى أنها التى وهبت نفسها للنبى ﷺ فأنزل الله تبارك وتعالى فيها:

﴿وإمْرَأَةً مُؤمِنَةً إنْ وَهبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دونِ المُؤمِنِين﴾[1].

قال السهيلى: «لما جاءها الخاطب بالبشرى وكانت على بعير، رمت بنفسها من على البعير وقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ».

ولم يرد اسم «ميمونة» رضى الله عنها فى تفسير البخارى لآية الأحزاب (٥٠) وأسند فيها عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: كنت أغار من اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسَها؟ فلما نزل الله تعالى: ﴿ترجى مَن تشاءُ منهن وتؤوى إليكَ من تشاء﴾ - الآية ٥١ - قلتُ: «ما أرى ربَّكَ إلا يسارع فى هواك» خرّجه الحافظ ابن حجر من مختلف طرقه وبمختلف رواياته وأسماء الواهبات،ثم قال: «والمراد أنه ﷺ، لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحًا له لأنه راجع إلى إرادته لقوله تعالى: ﴿ترجى من تشاء منهن﴾.. والمحفوظ أنه ﷺ لم يدخل بأحد من الواهبات كما تقدم (فتح البارى ٣٧٢/٨).

* * *

(١) السيرة: ٢٩٦/٤ والاستيعاب ١٩١٦/٤. والإصابة ١٩٢/٨، وعيون الأثر كلهم عن الزهرى. والآية من سورة الأحزاب، رقم ٥٠.

كانت الأيام الثلاثة التى نص عليها عهد الحديبية[١]، قد قاربت نهايتها، فودّ المصطفى لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج، فيكسب بهذا الإمهال مزيدا من الوقت، ليمكن للإسلام من هؤلاء الذين لايزالون يكفرون عنادا وحسدا...

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان إليه أن يخرج، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه فى العهد، قال مسالما:

«ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه؟!»

لكن رسولى قريش، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائعة، إذا امتد مقامه بها أياما أخريات.

ردًّا فى جفاء: «لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا»[٢].

فنزل على كلمتها وفاءً بعهده، وأذّن فى المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه «أبا رافع» بمكة، ليلحق به فى صحبة «ميمونة».

---

(١) نص العهد على أن يرجع وأصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ، السنة السادسة للهجرة، ثم يدخلها بأصحابه فى عام قابل، فيقيموا بها ثلاثة أيام.

طبقات ابن سعد: ٢/ ٧٠. مع (اللؤلؤ والمرجان، ك الجهاد، باب الحديبية).

(٢) السيرة: ١٤/٤ وطبقات ابن سعد ٨٨/٢ وتاريخ الطبرى: ١٠٠/٣، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ١٤٨/٢.

البقعة المبَاركة

وفى «سرف» قرب التنعيم، على بريد من مكة، جاءت «ميمونة» يصحبها مولى النبى عليه الصلاة والسلام..

فبنى بها ﷺ فى شوال من سنة سبع، ثم انصرف بها راجعا إلى «المدينة». وسماها، رضى الله عنها: «ميمونة».

أن كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء، التى دخل فيها أم القرى، لأول مرة من سبع سنين، ومعه صحابته آمنين لا يخافون..

ودخلت «ميمونة» بيت النبى مسالمة، قد اكتفت من دنياها بما منَّ الله عليها به من نعمة الإسلام، وشرف الزواج بالنبى الكريم عليه الصلاة والسلام.

وما من ريب فى أن الغيرة أخذتها من «عائشة» ثم من «مارية»: أن استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب النبى عليه الصلاة والسلام، وكان للثانية شرف أمومتها لإبراهيم.

ولعلها كذلك لم تقاوم عاطفة الجماعة، حين تجمح الغيرة بنساء النبى وهى منهن.

لكن مؤرخى الإسلام وكتاب السيرة، لا يذكرون لها، فيما عدا ذلك، حادثة خصومة انفردت بها، أو شجارا شبَّته فى البيت المحمدى.

---

(١) السيرة: ١٤/٤ - وتاريخ الطبرى: ١٠١/٣ - والاستيعاب: ١٩١٨/٤ ووفاء الوفا للسمهودى: ٣١٦/١.

وفى الصحيحين أنه ﷺ كان فى بيتها حين اشتد به الوجع فى مرض الموت، فرضيت أن ينتقل ليُمرضَ حيث أحب، فى بيت عائشة.

* * *

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه الأعلى، عاشت «ميمونة» تذكر اليوم الميمون الذى جمعها بخير البشر، وتحن إلى البقعة المباركة فى «سرف» حيث بنى بها..

وقد أوصت أن تدفن فى موضع قبتها هناك، فلما ماتت سنة إحدى وخمسين، على الأرجح، صلى عليها ابنُ أختها عبد الله بن عباس، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها. حتى أرقدوها حيث أحبت...[1]

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة..

حدث ابنُ أختها «يزيد بن الأصم العامرى» قال:

«تلقيت عائشة من مكة، أنا وابنٌ لطلحةَ من أختها، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه.. فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه، ثم أقبلت علىَّ فوعظتنى موعظة بليغة ثم قالت: أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت من بيوت نبيِّه؟.. ذهبتْ والله ميمونة،

---

(١) لا خلاف فى مدفنها فى موضع قبتها بسرف، لكنهم اختلفوا فى تاريخ وفاتها. نقل ابن سعد عن الواقدى أنها ماتت سنة إحدى وستين. وقال ابن عبد البر: سنة إحدى وخمسين، وقال ابن حجر: هو الأثبت. وتعقب قول الواقدى فوهمه فيه مستدلا بحديث عائشة بعد وفاة ميمونة رضى الله عنها. ولم يذكر ابن سيد الناس فى وفاتها غير سنة إحدى وخمسين، وقد بلغت ثمانين سنة (عيون الأثر ٢/٣٠٩).

ورُمِى بحبلِك على غاربك. أما أنها كانت والله من أتقانا لله، وأوصلنا للرحم»[١].

سلام على ميمونة..

وسلام على نساء النبى ﷺ، أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات بسنده إلى يزيد، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة، من طريق ابن سعد.

مارية القبطيّة

أمّ إبْراهِيمَ عليه السلام

«إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما»

رسول الله صلى الله عليه وسلم

(صحيح مسلم)

باب وصية النبى صلى الله عليه وسلم

بأهل مصر

هدية مِن مِصر

غير بعيد من بيت النبى، فى منزل خاص بعوالى المدينة، كانت تقيم سَرِيَّة للنبى ﷺ لم تحظ بلقب أم المؤمنين، ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابنه إبراهيم عليه السلام إلى جانب حظوتها، مثلهن، بشرف الصحبة.

وهى لم تقم فى حجرات النبى الملْحقة بالمسجد، إلا أن أثرها فى هذه الحجرات وساكناتها كان جد بعيد.

فمن تكون هذه السرية؟ وكيف دخلت حياته ﷺ؟ وأى موضع كان لها فى هذه الحياة؟

فى قرية عتيقة من صعيد مصر، تدعى «حَفْنَ» من كورة «أنْصِنَا»[1] الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين، ولدت «مارية بنت شمعون» لأب قبطى، وأم مسيحية رومية.

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل فى مطلع شبابها الباكر مع أختها «سيرين» إلى قصر «المقوقس عظيم القبط ملك الإسكندرية».

---

(١) الضبط عن أبى عبيد البكرى فى معجم ما استعجم وفيه: ويقال إن سحرة فرعون كانوا منها، وأنه جلبهم منها يوم الموعد. وهى واقعة فى شرق النيل وكانت حسنة البساتين والمنتزهات كثيرة الثمار والفواكه، نقله التقى المقريزى، وقال أبو حنيفة الدينورى: ولا ينبت البِنجْ إلا بأنصنا وهو عود ينشر منه ألواح السفن (خطط المقريزى ٢٠٤/١).

وللشاعر حفنى ناصف بحث فى (موطن مارية القبطية من الديار المصرية) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين فى أثينا سنة ١٩١٥. وانظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى: (القسم الأول، البلاد المندرسة: أنصناء ص١٣٢) ط دار الكتب المصرية.

وقد سمعت هنالك بظهور نبى فى جزيرة العرب يدعو إلى دين سماوى جديد. وكانت فى القصر حين وفد «حاطب بن أبى بلتعة»[1] رضى الله عنه، موفدًا من هذا النبى العربى، يحمل رسالة إلى المقوقس. وأُذِن له فى الدخول، فأدى الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

«من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)».

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه فى عناية وتوقير، ووضعه فى حُقٍّ من عاج دفعه إلى واحدة من جواريه.

والتفت من بعد ذلك إلى «حاطب» يسأله أن يحدثه عن النبى العربى ويصفه له، فلما فعل، فكر المقوقس مليًّا ثم قال لحاطب:

«قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب... ولكن القبط لا تطاوعنى» وضنَّ بملكه أن يفارقه.

---

(١) من البدريين. وكان أحد الستة الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام فى محرم سنة سبع بعد فتح خيبر: السيرة ٢٥٤/٤، طبقات ابن سعد ٢٥٨/١، تاريخ الطبرى ٨٤/٤) مع ترجمة حاطب رضى الله عنه، فى (الاستيعاب: رقم ٤٥٧) ومارية، رضى الله عنها فى نساء الاستيعاب ٤٠٩١، ونساء الإصابة ٩٧٩.

ثم دعا بكاتبه فأملى عليه رده:

«... أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وكسوة ومطية لتركبها، والسلام عليك»[١].

ودفع «المقوقس» كتابه إلى «حاطب» معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم، وموصيا إياه بأن يكتم ما دار بينهما، فلا يسمع القبط منه حرفًا واحدًا.

وانطلق «حاطب» عائدا إلى النبى ﷺ، ومعه «مارية» وأختها «سيرين» وعبد خصى، وألف مثقال ذهبا، وعشرون ثوبا لينا من نسج مصر، وبغلة شهباء «دلدل» وجانب من عسل «بنها» وبعض العود والند والمسك.

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن، فسارتا تملآن أعينهما من الوادى الحبيب، حتى إذا غابت عنهما آخر معالمه، ألقتا نظرة وداع، على الأرض التى حُلَّت فيها تمائمهما، ودرج عليها صباهما.

وأحس «حاطب» ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق، ويروى لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرون لا عداد لها، ثم انثنى يتحدث عن النبى ﷺ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب، فأُخِذَت

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٨٥، والمحبر ٩٨، وعيون الأثر ٢/٢٦٦ والنقل منه، وفى الهدية، عند ابن سعد (١/٢٦٠) الحمار عفير، أويعفور حكاه ابن حجر فى ترجمة مارية بالإصابة.

الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للإسلام ونبيه الكريم عليه الصلاة والسلام.

واستغرقهما التفكير فى الحياة الجديدة التى توشك أن تستقبلها، وفى السيد النبى الذى ينتظر فى «المدينة» رجوع صاحبه «حاطب» بجواب المقوقس. وفى الإصابة من طريق ابن سعد، أن حاطبا عرض الإسلام على مارية ورغبها فيه، فأسلمت هى وأختها.

* * *

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة، وقد عاد النبى ﷺ من «الحديبية» بعد أن عقد الهدنة مع قريش.

وتلقى ﷺ كتاب المقوقس، وهدية مصر..

وأعجبته «مارية» فاكتفى بها،ووهب أختها «سيرين» لشاعره «حسان بن ثابت» فهى أم ولده عبد الرحمن.

وطار النبأ إلى دور النبى، أن شابة مصرية حلوة، جعدة الشعر جذابة الملامح، قد جاءت من أرض النيل هدية للنبى ﷺ فأنزلها بمنزل لحارثة ابن النعمان الأنصارى، قرب المسجد النبوى.

وتكلفت عائشة» ما استطاعت من جهد، لكى تعلل نفسها بألّا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة، أهداها سيد إلى سيد.

لكنها راحت ترقب فى كثير من القلق، مظاهر اهتمامه صلى الله عليه وسلم بتلك المصرية الطارئة، وقد غاظها أن تراه صلى الله عليه وسلم

يكثر من التردد عليها، ويمكث لديها طويلا «فكان عامة الليل والنهار عندها» فى ساعات فراغه[١].

وفى رواية للواقدى بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب بمارية القبطية، وكانت بيضاء جعدة جميلة، فأنزلها وأختها على أم سُلَيم بنت ملحان، فدخل عليهما يعرض عليهما الإسلام فأسلمتا. وحولها إلى مال له بالعالية، ووهب أختها سيرين، حسان بن ثابت[٢].»

* * *

(١) أسنده ابن سعد فى الطبقات من حديث السيدة عائشة، ورواه ابن حجر فى الإصابة من طريق ابن سعد.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/١٣٤.

طيفٌ وأمَل

مضى عام أو نحو من عام، و «مارية» سعيدة بحظوتها لدى السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام، قد اطمأن بها المقام فى كنفه، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب شأن أمهات المؤمنين.

وانحصرت أمانيها وخواطرها، بل انحصر وجودها كله فى شخص ذلك السيد العظيم الذى ربطها القدر به على غير ميعاد، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه.

وكانت تحمل فى كيانها سحر مصر، وفى أعطافها أريج الوادى العطر، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف ساحرة، لإيزيس فى حبها العبقرى، ونفرتيتى فى جمالها الباهر، وحتشبسوت فى ملكها العتيد، وكيلوباتره فى جاذبيتها الآسرة..

ولم يَغِض ذلك النبع الدافق الذى كان يمدها فى كل آن بعذب الحديث وشهى السمر، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة «هاجر» زميلتها المصرية التى جاءت من أرض النيل، وحملت من سيدها «إبراهيم» فأثارت غيرة زوجته السيدة «سارة» فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق، حيث تركهما هنالك: وحيدين بوادٍ غير ذى زرع عند أطلال البيت العتيق.

وطالما شاق «مارية» أن تسمع الحديث عن نجدة السماء التى فجّرت لهاجر زمزم، وكيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة، وكيف عاشت «هاجر» ملء التاريخ، وصار مسعاها مهرولةً بين

الصفا والمروة، شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب فى الجاهلية والإسلام.

وألِفت «مارية» حين كانت تخلو بنفسها، أن تفكر فى «هاجر» ومصريتها وأمومتها لإسماعيل وللعرب، فلم تخطئ فيها ملامح شبه بها: فكلتاهما جارية مصرية، وكانت «هاجر» هبة من سارة للنبى إبراهيم عليه السلام، كما أن «مارية» هبة من المقوقس للنبى محمد ﷺ وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات فى بيت السيد النبى إبراهيم، أو محمد، صلوات الله عليهما.

ما أبعد الأمنية، بل ما أدناها من المستحيل!..

لقد تزوج المصطفى ﷺ منذ ماتت السيدة خديجة، عشر زوجات، منهن الشابة الفتية، والمرأة الناضجة، ومنهن من كانت ذات ولد. ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولدٍ واحد للنبى الذى تخطف الموت أبناءه من خديجة، فلم يدع له سوى ابنة واحدة، هى السيدة «فاطمة الزهراء».

وقد شارف الستين من عمره، وبدا كأنه كفَّ عن تمنى الولد، بعد سنين مجدبة، مع زوجات ذوات عدد.

فأنّى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لإسماعيل؟

يالها من أمنية أبعد من الوهم، ويا له من أمل أوهى من السراب!

بُشْـرَىٰ

استقبلت «مارية» عامها الثانى فى حياة النبى ﷺ، وما تكفّ عن ذكر هاجر وإسماعيل، وإبراهيم.

وفجأة أحست بوادر حمل مستكن، فكذبت إحساسها واتهمت يقظتها، وخيل إليها أن الأمر لا يعدو أن يكون وهما جسمه شوقها الملح إلى الأمومة، وتفكيرها الدائم فى هاجر وإسماعيل.

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهى فى ريب من الأمر، لا تدرى أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام.. حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تتهم.

هنالك أفضت به إلى أختها «سيرين» فأكدت لها أن ليس فى الأمر وهم ولاشبه وهم، وإنـما هو جنين حى.

وأخذ «مارية» من الانفعال والفرح ما قَرُبَ وما بَعُدَ، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها، وتحقق أملها الذى بدا عقيما واهيا كالسراب.

واستغرقتها نشوة حالمة، حتى جاء السيد الرسول ﷺ، فأفضت إليه ﷺ بالسر الخطير الذى تجنه أحشاؤها.

وتذكر عليه الصلاة والسلام ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها فى الطعام، وهى أعراض عرفها من قبل فى «خديجة» فى مستهل كل حمل، لكنه حسبها فى «مارية» وعكة طارئة لاتلبثُ أن تزول.

ورفع إلى السماء وجها مشرق الأسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء

الجميل الذى منَّ به على عبده الرسول، إثر فقد ابنته الغالية «زينب» بعد أن ماتت قبلها رقية، وأم كلثوم، ومات عبدالله، والقاسم...

سبحانه، جلَّت قدرته وعظمت آياته، ووسعتْ رحمتهُ عبده المصطفى، ﷺ، كما وسعتْ من قبله، عبديه إبراهيم وزكريا عليهما السلام.

قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]

ومن آياته تعالى فى زكريا والبشرى:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[2]

لكن «مارية» لم تكن عجوزًا، كما لم يكن المصطفى عقيما قد بلغ من الكِبَر عِتيًّا!.

وفاض عالمها المشترك بالهناءة والغبطة.

وسرعان ما سرت البشرى فى أنحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر

---

(١) سورة الذاريات: الآيات: ٢٤-٣٠.

(٢) سورة مريم: الآيتان ٨، ٩.

مولودًا له من «مارية المصرية» وما بقارئ حاجة إلى أن نصور له وقعها على نساء النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم.

أتحمل هذه الغريبة الطارئة، ولما يمض عليها فى المدينة سوى عام واحد، وإن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل؟...

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى، وأمهات المؤمنين، وفيهن بنتا أبى بكر وعمر، وبنت زاد الركب، وحفيدة أبى طالب، محرومات لا يلدن؟

روى ابن سعد من طريق الواقدى: «أن رسول الله ﷺ حجب مارية، وكانت قد ثقلت على نسائه، وغِرْنَ عليها، ولا مثل عائشة»[١].

ونقلها ﷺ إلى «العالية» بضواحى المدينة، توفيرًا لراحتها وسلامتها، وعناية بصحة جنينها.

وسهر عليها يرعاها، وكذلك فعلت أختها «سيرين» حتى بلغ الجنين أجله،وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة،ودعا ﷺ قابلتها «سلمى: زوج أبى رافع» ثم انتحى ناحية من الدار، يصلى ويدعو...

فلما جاءته أم رافع بالبشرى[٢] أكرمها كل الإكرام، وخفَّ إلى مارية فهنأها بولدها الذى أعتقها من الرق، ثم حمل وليده بين يديه فى غبطة وسماه «إبراهيم» تيمنًا باسم جد الأنبياء[٣] عليهم السلام.

---

(١) الطبقات الكبرى، ترجمة إبراهيم عليه السلام (١/١٣٥).

(٢) وفى رواية أن الذى حمل البشرى إلى النبى ﷺ مولاه أبو رافع زوج سلمى: ابن سعد ١/١٣٦، والسمط: ١٤٠ - وانظر الاستيعاب: ١/٥٤.

(٣) السمط الثمين: ١٤٢ - وانظر الاستيعاب: ٤/١٩١٣.

وتصدق ﷺ على فقراء المدينة بوزن شعر الوليد ورقا، وتنافست نساء الأنصار أيتهن ترضعه، وأحبوا أن يفرِّغوا مارية للنبى ﷺ لما يعلمون من هواه فيها، فاختار مرضع ولده، وجعلَ فى حيازتها قطعة من الماعز كى ترضعه لبنها إذا شح ثدياها[1].

وراح يرقب نموه يومًا بعد يوم، ويجد فيه أنسه ومسرته، ويود لو شاركته دنياه كلها فى هذا الأنس.

حمله يومًا بين ذراعيه إلى «عائشة» ودعاها فى تلطف وبشر، لترى ما فى الصغير من ملامح أبيه، فبلغ من شدة قهرها أن كادت تبكى مما تجد.

وأدرك المصطفى صلوات الله عليه مدى ما تكابد، فانصرف بولده وهو يرثى لعائشة...

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمّل والتكلف والمداراة، حتى كان اليوم الذى اجتمع فيه ﷺ بمارية فى بيت «حفصة» فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجًا، وكان ما كان من قصة التحريم.

وخُيل لمارية أنها بلغت مناها، فهذه هى تلد للنبى ﷺ ولدًا كما ولدت «هاجر» لإبراهيم ابنه إسماعيل عليهما السلام.

وهذه هى محنة الغيرة تنتهى على خيرٍ لها.

ولم يسعد «مارية» شىء قدر ما أسعدها أن تهب السيد المصطفى ﷺ

---

(١) فى (صحيح مسلم، ك الفضائل: ح٢٣١٥) أنها«أم سيف»امرأة أبى سيف، قين بالمدينة. وفى رواية للواقدى أنها أم بردة بنت المنذر الأنصارية (١/١٣٦) وانظر الإصابة لابن حجر: ٣ج ١ والاستيعاب: ١/٥٥ وفى رواية أنه ﷺ حلق رأس ولده يوم سابعه، وتصدق بزنة شعره فضة، وذبح كبشين «وفاء الوفاء: ١/٣١٦».

على اليأس غلامًا تقرّ به عينه، ويتعزّى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها.

* * *

لكنها لم تنج من غيرة نساء النبى ﷺ:

فى (الإصابة) من حديث عَمرة، بنت عبد الرحمن، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: «ما غِرتُ على امرأة إلا دون ما غِرْتُ على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيتٍ لحارثة بن النعمان، الأنصارى، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها.. فجزعتُ فحوَّلها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا» زادت فى رواية: «ثم رزقها الله الولدَ وحُرمناه منه».[1]

على أن غيرة أمهات المؤمنين، رضى الله عنهن، لم تنل من «مارية» ما نالته شائعَة سوء أرجف بها مرجفون من أهل المدينة، عن العبد «مابور» الذى جاء معها من مصر فى هدية المقوقس «وكان يأوى إليها لخدمتها ويأتيها بالحطب والماء. فقال ناس، لا يتقون الله، علج يدخل على علجة».

ولم يتخل الله تعالى عنها فى محنتها، بل أتاح لها دليلًا قاطعًا على براءتها من الريبة، فى حديث عن أنس رضى الله عنه؛ أخرجه الإمام مسلم فى (صحيحه، كتاب التوبة، باب براءة حرم النبى ﷺ - أم ولده إبراهيم - من الريبة) كما أخرجه الحافظ أبو عمر بن عبد البر، فى ترجمتها بالاستيعاب .

---

(١) وانظر مع ترجمة مارية وإبراهيم، عليهما السلام، الاستيعاب والإصابة، مناقب إبراهيم عليه السلام فى (مجمع الزوائد: ١٦١/٩ - ١٦٢).

الهلالُ الغارب

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المرير.

مرض «إبراهيم» ولما يبلغ عامين من عمره، فجزعت أمه ودعتْ إليها أختها، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق، لكن الحياة أخذت تنطفئ فيه رويدًا رويدا... فجاء أبوه معتمدًا على يد «عبد الرحمن بن عوف» لشدة ألمه، فحمل صغيره من ججر أمه وهو يجود بنفسه، ووضعه فى حجره محزون القلب لا يملك إلا أن يقول فى أسى وتسليم:

«إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا» ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت، ويسمع حشرجة احتضاره، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة.

عن «أنس بن مالك» رضى الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على «أبى سيف، القين» وكان ظئرًا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه. ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيمُ يجود بنفسه. فجعلت عينا رسول الله ﷺ تدمعان فقال له عبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يا ابن عوف، إنها رحمة» ثم أتبعها أخرى فقال ﷺ: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولانقول إلامايرضى ربنا، وإنا بفراقك ياإبراهيم لمحزونون»[1].

---

(١) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه. والنقل من (اللؤلؤ، ك الفضائل ح ١٤٩٥).

توفى عليه السلام لعشرٍ خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة الأرجح[١].

وانحنى الأب الثاكل على جثمان فقيده والدمع يفيض من عينيه، ثم تمالك نفسه وقال: «يا إبراهيم، لولا أنه أمرٌ حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك حزنا هو أشد من هذا. وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»[٢].

ثم نظر إلى مارية فى عطف ورثاء، وقال يواسيها: «إن إبراهيم ابنى، وإنه مات فى الثدى، وإن له لظئرين تكملان رضاعه فى الجنة»[٣].

وأقبل ابن عمه ﷺ «الفضل بن عباس» فغسّل الصغير الميت، وأبوه، عليه الصلاة والسلام جالس يرنو إليه فى حزن.

وحُمِلَ من بيت ظئره على سرير صغير وصلى عليه أبوه، ﷺ وكبَّر أربعًا. ثم سار وراءه إلى البقيع، وأضجعه بيده فى قبره، ثم سوى عليه التراب وناداه بالماء[٤].

وآب المشيعون من البقيع واجمين، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس، فقال قائلهم: «إنها انكسفت لموت إبراهيم».

---

(١) طبقات ابن سعد، ولا خلاف فى أنه عليه السلام ولد سنة ثمان (فتح البارى: ١١٣/٣).

(٢) الاستيعاب: ٥٦/١ - والنقل منه - والإصابة: إبراهيم بن محمد، عليه السلام. والسمط الثمين ١٤٣.

(٣) أخرجه مسلم فى الصحيح فى كتاب الفضائل: ١٨٠٨/٤ (ح ٢٣١٦) وانظر (فتح البارى: ١١٣/٣).

(٤) طبقات ابن سعد: ١٤١/١، عيون الأثر ٢٩١/٢ - والنقل منها - والاستيعاب من طريق الواقدى ٥٦/١.

وبلغت الكلمة مسمع النبى ﷺ، فصلَّى بالناس صلاة الكسوف وخطبهم، قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا»[١].

وطوى جرحه فى قلبه الكبير صابرًا مستسلمًا لقضاء الله فيه، واعتكفت «مارية» فى بيتها تحاول أن تتجمل بالصبر حتى لا تنكأ الجرح فى قلب السيد الرسول ﷺ، فإذا عزّ الصبر خرجت إلى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها، والتمست راحة فى البكاء.

* * *

ولكن أيامه ﷺ لم تطل بعد موت «إبراهيم» فى السنة العاشرة للهجرة، فما استهل ربيع الأول من السنة التالية حتى شكا ﷺ، ثم لحق بربه الأعلى، وترك «مارية» من بعده تعيش خمس سنوات فى عزلة عن الناس، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين، ولا تكاد تخرج إلا لكى تزور مثوى الحبيب بالمسجد النبوى، أو قبر ولدها بالبقيع.

فلما ماتت سنة ستة عشر من الهجرة «أخذ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحشد الناس لجنازتها، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع»[٢].

* * *

(١) متفق عليه من عدة طرق بألفاظ متقاربة (اللؤلؤ والمرجان: ك الكسوف).
(٢) ترجمتها رضى الله عنها فى الطبقات والاستيعاب والإصابة.

وصية النبى عليه الصلاة والسلام بأهل مصـر

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموتِ﴾ فحسبُ «مارية» أنها دخلت فى حياة النبى ﷺ، وأنْ آثرها الله تعالى بأمومتها لإبراهيم عليه السلام.

وارتبطت ذكراها بذكرى هاجر فى وعى التاريخ وضمير الأمة، ورجَّعت الأجيال ما بينهما من صلة حميمة، منذ جاءتا الحجاز، فتاتين من مصر، هديتين من ملكها: هاجر أم ولد إبراهيم عليه السلام، ومارية أم ولد محمد ﷺ. ولعل أول من ربط بين مارية وهاجر، سيدنا محمد ﷺ، فى وصيته بأهل مصر محفوظة موثقة، مدونة فى صحاح الحديث فى (باب وصية النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مصر).

بعنوان هذا الباب، أخرج مسلم فى (الصحيح) من طريقين، حديث أبى ذر الغفارى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما - أو قال: ذمة وصهرا».

وفى رواية: «استوصوا بأهل مصر خيرا فإن لهم نسبا وصهرا».

النسب من جهة هاجر أم «إسماعيل عليه السلام، جدِّ العرب العدنانية. والصهر من جهة مارية القبطية أم إبراهيم بن محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم». ففى أهل مصر، خئولة ولد إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

---

(١) صحيح مسلم: ك الفضائل باب (وصية النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مصر).

وتداول الحفاظ حديث الوصية النبوية بأهل مصر، فرواها «أبو يعلى الموصلى» فى مسنده، و«أبو القاسم الطبرانى» فى معجمه الكبير وخَرَّجها «نورالدين الهيثمى» فى مجمع الزوائد.

وقد فُتِحَتْ مصر سنة عشرين للهجرة بعد تسع سنين من وفاة المصطفى ﷺ، فكانت الوصية من وثائق الفتح: ذكرها «عمرو بن العاص، رضى الله عنه» فى مفاوضات الصلح بينه وبين مندوبى المقوقس، قال لهما فيما قال: «وقد أعلَمنَا، نبينا ﷺ، أنا مفتتحوكم وأوصانا بكم، حفظًا لِرَحمنا فيكم، وأنِ لكم، إن أجبتمونا ذمةً إلى ذمة، ومما عهد إلينا أمير المؤمنين: استوصوا بالقبطيين خيرا فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرا لأن لهم رحما وصهرا»[1]..

وأخرج مؤرخو مصر الإسلامية، حديث الوصية فى كتب (فتوح مصر وفضائلها) فأخرجها من عدة طرق ابنُ عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، فى مستهل كتابه (فتوح مصر) والربيعُ الجيزى فى (من دخل مصر من الصحابة، رضى الله عنهم).

ثم مَنْ بعدهما من المؤرخين الحفاظ من: أبى جعفر الطحاوى، وابن يونس الصدفى فى تاريخهما الكبيرين، إلى التقى المقريزى فى (الخطط) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة) والجلال السيوطى فى (حسن المحاضرة).

ودخل حديث الوصية فى كتبِ الدلائل، أذكر منها (دلائل النبوة لأبى بكر البيهقى، ولأبى نعيم الأصبهانى).

---

(١) تاريخ الطبرى: ٤/٢٢٧ - ٢٢٨ (سنة عشرين).

وكذلك أخذت بلدة (حَفن، من كورة أنصنا) الأثرية القديمة من صعيد مصر موضعها من كتب المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين.

فى (النجوم الزاهرة: ٢٩/١) عن ابن كثير:

«وقد وضع عنهم - أهل حَفْن من كورة أنِصنَا - معاويةُ بن أبى سفيان الجزية إكرامًا لإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من مارية القبطية. قال ياقوت فى (حفن) من معجم البلدان: وكلّم الحسن بن على رضى الله عنهما معاوية لأهل حفنَ فوضع عنهم معاوية خراج الأرض».

ويقال إن «عبادة بن الصامت الأنصارى» رضى الله عنه، وكان ممن شهد فتح مصر بحث عن تلك البلدة وسأل عن موضع بيت مارية بها، فبنى به مسجدًا.

* * *

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ

صدق الله العظيم